# الفريضة

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب : الفريضة (رواية)

المؤلف : د. بشير عبد الواحد يوسف

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٩

رقم الإيداع : ٥٩٧٢ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 303 - 5

---

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

---

لوحة الغلاف : للفنان محمد دوفان




# الفريضة

## ما حكم به القاضي الحكيم (عريب العُربة)

رواية

د. بشير عبد الواحد يوسف

# إهداء

إلى كل فتاة شريفة عفيفة تعرف كيف تحافظ على نفسها من غدر الزمان والإنسان...

وإلى كل أم حكيمة تعرف كيف تدافع عن بناتها وتحميهنّ من الزلل...

وإلى روح الحكيم جدي يوسف سالم بخيتان ، وروح أبي مَثلي الأعلى في الحياة - رحمهما الله - اللذين حكيا لي هذه الحكاية بكل صدق وأمانة ، حكاية حقيقية فيها متعة وملحة وحكمة من واقع حياة الريف في جنوب العراق.

( ١ )

هور الحويزة مسطح مائي كبير يقع بين العراق وإيران مساحته القصوى ٣٢٥٠ كيلومتر مربع تقريبًا معظمه في العراق بطول ٨٠ كيلو متر وعرض ٣٠ كيلو متر ويمتد في محافظتي البصرة والعمارة ويغذيه نهر الكرخة من إيران ونهرا المشرح والكحلاء فرعان من دجلة من العراق، تطرز هذا الهور العظيم الغني بأسماكه وطيوره وحيواناته الداجنة قرى عديدة في داخله وعلى حافاته الواسعة.

وقريتنا التي تغفو على نهر المشرح تسكنها مجموعة فلاحية من عشيرة كبيرة يطلق عليها أهل المضايف والكرم وكبيرهم بمعنى شيخهم يدعى زامل... يملك هذا الشيخ أراضٍ زراعية واسعة لزراعة الشلب والحنطة والشعير، وله زوارق كثيرة لصيد الأسماك والطيور المهاجرة خاصة في فصل الشتاء، كذلك يملك المطحنة الوحيدة في القرية والتي تخدم الأسلاف [١] المجاورة أيضًا.

---

**(١) الأسلاف : قرى صغيرة.**

لشيخ زامل مضيف كبير من القصب والبردي مسقف بالجندل[١] والبواري[٢] ومفروش بالسجاد المزركش بألوان جذابة زاهية يطغي عليها اللون الأحمر وبالوسائد الزاهية الألوان والمنفوشة بالريش الناعم والمنقوشة بريشة رسّام بارع والمصنوعة من خيوط الصوف الخالص.

تتوسط المضيف الواسع الذي يتسع لستين شخص موقد كبير فيه عدد من دلال القهوة لها أسماءها وتختلف في حجمها.

وهناك مضيف آخر واسع يملكه سيد موسوي اسمه عريب العُربة فريضة[٣] مشهور عند عشائر الجنوب تقصده الناس من كل صوب وحدب... ولكل مضيف روّاده وناسه، وهناك علاقة طيبة بين شيخ زامل والسيد عريب العُربة أحدهما يزور الثاني باستمرار، ودائمًا الشيخ يستأنس بآراء وحكايات السيد لأن فيها حكمة وملحة ورأي سديد.

شيخ زامل متزوج من ابنة عمه سعدة عن حب قديم من أيام الشباب، تزوجا وهما في العشرين واليوم دخلا في الأربعين دون أن تنجب سعدة للشيخ لا ولدًا ولا بنتًا.

---

**(١) الجندل : أغصان الأشجار القوية اليابسة.**

**(٢) البواري : جمع بارية : حصيرة مصنوعة من القصب المبسط.**

**(٣) الفراضة : القضاء والتحكيم ، والفريضة الشخص الذي يوكل له الناس القضاء والتحكيم بينهم.**

سعدة امرأة ذكية ومدبِّرة ، يجِّلها الشيخ ويحترمها ويستشيرها في كل صغيرة وكبيرة أكثر مما يستشير الفريضة الحكيم صديقه الحميم "عريب العُربة".

سعدة فكرَّت كثيرًا حتى أضناها التفكير ، ليالٍ طويلة تفكر وتدبر تريد حلاً للإنجاب ، لكن دون نتيجة مقنعة ، ولكنها تحاملت على نفسها وداست على قلبها وعواطفها وحكَّمت عقلها ، وفِي إحدى ليالي الشتاء وهما حول الموقد يتجاذبان أطراف الحديث كالعادة تشجعت وقالت:

- يا طويل العمر أنا اجتزت الأربعين عام وليس بعد لي أمل في الخلفة [١] وأنت شيخ هذه العشيرة ورب نعمتها بما تملكه من سُلطة وجاه وأراضٍ زراعية واسعة وأملاك وزوارق ومطحنة، وأهل القرية كلهم فلاحون في أرضك يأكلون من نعمتك ، ولنا الشيء الكثير من الحلال من الأغنام والأبقار والجاموس والحيوانات الداجنة قسم منها لا يُعد ، ولنا كل هؤلاء الخدم والحشم وبيادر الخير هذه... وهذا المضيف العامر ، بعد عمر طويل سيؤول لمَن يا شيخ؟ وأنا لا أمل لي بالخلفة لانقطاع العادة [٢] عني منذ ثلاثة أشهر ، وأنا أعاني الأمرَّين من التفكير المضني والسهر. وإني قد اتخذت قرارًا

---

**(١) الخلفة : البنين من الأولاد والبنات.**

**(٢) العادة : الدورة الشهرية.**

أريدك أن تساعدني فيه وعلينا أن نحكِّم عقولنا ولا نرضخ لعواطفنا وأهوائنا وعلينا أن نغلب الدنيا قبل أن تغلبنا ويذهب كدَّنا وحلالنا لغيرنا... اسمعني جيدًا يا أعز من روحي وأغلى من حياتي، لقد عزمت أن أزوِّجك من امرأة مُنجبة تنجب لنا ولدًا يورثنا ويورث المشيخة[١]، فأرجوك وأتوسل إليك وأحب يديك أن توافقني بالله عليك وبروح والديك.

جفل الشيخ من كلام سعدة وغضب وارتعد وانتفض من مكانه كأن أفعى لدغته، وقال بلهجة زاجرة:

- اسكتي يا سعدة ولا تكملي كلامك، أنتِ عندي غالية مثل الهواء والماء، أنتِ روحي وحياتي، أنتِ حبي الأول والأخير، أنتِ عمري وأنفاسي وقلبي النابض يا سعدة، والله يا بنت عمي أنا سعيد معكِ ومرتاح ولا يمكنني فراقكِ ساعة واحدة، أنتِ حبيبتي وصديقتي وأمي وأبي... ماذا تقولين يا سعدة؟ هل جُننتِ؟

سعدة بهدوء ورزانة وهي تعانقه وتقبِّل جبينه:

- يا شيخ أرجوك شغل عقلك ولنفكِّر معًا بما قلته لك، أطمئن سأكون معك العمر كله ولا يفرقنا إلا الموت، لكن مصلحتنا يا شيخ تقتضي أن نفكِّر بعقل ومنطق قبل أن يغلبنا الدهر

---

**(١) المشيخة: حكم العشيرة.**

والأيام تجري وكنز العمر صرفنا نصفه ولم يبقَ لدينا متسع من الوقت لنربي وريثنا كما نحب ونشتهي لنخلد اسمك ونحافظ على ممتلكاتنا.

هدأ الشيخ قليلاً واتكأ على وسادة الصوف المزركشة الحمراء الزاهية وهو ينظر في عيون سعدة وقد جرت الدموع لتكوي خديهما، ومد يده إلى علبة السكائر الفضية ولَفَّ له سيجارة من التبغ الذي يستذوق طعمه ودخانه وهو ينصت إلى كلام سعدة المفاجئ ويقلّبه بعقلهِ محاولاً استيعابه وفهم مقاصده، وهل سعدة جُنَّت لتشارك امرأة أخرى برضاها واختيارها في زوجها ومملكتها وحلالها ومركزها، لكنه يعلم علم اليقين رجاحة عقل سعدة وحكمتها وبُعد نظرها، فازداد هدوئه وعدل جلوسه وقال:
- إيه سعدة، وماذا عندك بعد؟

هنا أردفت سعدة:
- إني اخترت لك "حسنة" زوجة، وأسبابي كونها شابة تعمل عندي من سنين وأعرفها جيدًا وأبوها وعمها وإخوتها يعملون فلاحين في أرضنا، وأمها وأخواتها منجبات، وحسنة بنت عاقلة أمينة وخادمة مطيعة ستعيش معي في نفس البيت، أنا التي ربّيتها وعلّمتها، وهي تحبّني وتطيعني، وكل المطلوب منها أن تلد لنا ولدًا أنا أربيه لك يا شيخ، يعني ستكون حاضنة للطفل.

بعد تفكير طويل ونقاش مرير وإلحاح كبير من سعدة وافق الشيخ وقال:

- أنتِ يا سعدة تخطبينها وأنتِ تدخلينني عليها، وأنتِ كما أنتِ تبقين الشيخة [١] وأم البيت ومستشارتي وحبيبة قلبي وأم الولد الكبيرة ويبقى كل شيء بيدك فأنتِ الآمرة الناهية، اتفقنا يا سعدة؟

- نعم يا شيخ اتفقنا، المهم الولد يتربى بعزك وبأحضاننا.

في اليوم التالي استعدت سعدة ولبست أحلى ما عندها من ملابس غالية: ثوب هاشمي [٢] مطرز بخيوط الكلبدون الذهبية وشيلة [٣] وجرغد [٤] هدية الشيخ من الرضا عليه السلام وعباءة جاسبي من الكاظم عليه السلام، ولبست شحاطتها السوداء أم الوردة وتزينت بالمسك والعنبر والسعد[٥] والديرم[٦] وذهبت إلى بيت حسنة القريب من بيت الشيخ.

---

**(١) الشيخة : زوجة الشيخ.**

**(٢) ثوب هاشمي : ثوب فضفاض غالي الثمن.**

**(٣) شيلة : قطعة قماش أسود يلف به الرأس ويغطي الصدر كنوع من الحجاب**

**(٤) الجرغد : قطعة قماش سوداء ناعمة الملمس تلف مثل العمامة.**

**(٥) السعد : جذور نبات سوداء اللون مذاقها طيب ورائحتها زكية.**

**(٦) الديرم : لحاء نوع معين من الأشجار يعطي الشفاه لونًا أحمر زاهيًا.**

استقبلتها أم حسنة وبناتها وأخواتها أحسن استقبال وفرحوا بهذه الزيارة الميمونة التي تشرفهم وترفع من قدرهم ومعنوياتهم في القرية وعند أبناء العشيرة ، وخطبت حسنة للشيخ ، وعلت أصوات الهلاهل [١] ووُزع الشربت الذي جلبته سعدة معها على الجميع ووزعت الحلوى وطشت حسنة الواهلية [٢] على تجمع الأولاد والبنات الصغار ليفرح الكل.

انتشر الخبر بالقرية وغمر حسنة وعائلتها فرحٌ غامرٌ أنهم سيناسبون شيخ العشيرة مزعل ، يا بختهم وَيَا حسن حظهم ، نعمة ورزق بعثة الله لهم من غير ميعاد ، صحيح لو قالوا الزواج قسمة ونصيب.

شيخ زامل يستشير صديقه الحكيم عريب العُربة بعد أن زاره في مضيفه الذي يقع على حافة نهر الجادل [٣] المتفرع من نهر المشرح [٤]... فأجابه:

---

**(١) الهلاهل : الزغاريد.**

**(٢) الواهلية : حلويات توزع على رؤوس الأولاد والبنات.**

**(٣) الجادل : أحد الأنهار الكثيرة المتفرعة من نهر المشرح.**

**(٤) المشرح : تعني النهر الكثير الشروح (الفروع الصغيرة) حفره الفلاحون بالسُخرة بأمر الشيخ بعد أن وسع أراضيه الزراعية وتطلب الأمر حفر نهر آخر (شرح أخر من نهر المشرح) لسقي المساحات الواسعة من الاراضي تمت تسميته نهر الجادل ، وتَشَكلَ هناك سلف سكنته عدد من العوائل الفلاحية التي تكد ليل نهار من أجل معيشتها البسيطة المتواضعة.**

- نعمَ الرأي ونعم العقل هذا هو الحب الحقيقي... زوجتك امرأة حكيمة تفكر بالحاضر وتفكر بالمستقبل يا شيخ أنت محظوظ.

فيطمئن الشيخ ويرتاح في قرار نفسه.

جهزت سعدة البطلة كل ملتزمات الزواج وهيأت غرفة للعروس قريبة من غرفتها، تم عقد المهر، وأدخلته على حسنة ليلة الدخلة ودعت ونذرت أن تلد لهم حسنة مولودًا ذكرًا، وعادت لغرفتها ولَم تستطع أن تمنع الدموع من أن ترطب خدها البض، وجافاها النوم تلك الليلة.

في الصباح الباكر حضَّرت سعدة بيديها الإفطار مما لذ وطاب من القيمر والعسل البري وبيض الطيور وعدد من الرغفان من دقيق الرز وكاسة (إناء) كبيرة من اللبن الخاثر المخضوض بالكطينة (ثمرة نبات كبيرة مجوفة) تطفو على وجهة كرة من الزبدة البلدي مع قوري (براد) الشاي المهيل وسكر القنديل (مخروط من السكر المتماسك) المعروف بالأرياف... طرقت الباب طرقًا خفيفًا وصينية الإفطار على رأسها، ففتح لها الباب زامل بدشداشته البيضاء الناصعة ومظاهر الحياء تغطي وجهه تناول من على رأسها الصينية وقبَّل جبينها وسلمها منديل أبيض عليه قطرات من الدم؛ كما جرت العادة عندهم. هلهلت سعدة، وزامل أغلق باب الغرفة على عجل.

في الطرف الثاني من القرية حيث مضيف عريب العُربة وعائلته وسلفه يعيشون أيضًا على الزراعة وخيرات الهور قنوعين بحياتهم البسيطة يتجمعون مساء كل يوم في المضيف وعريب العُربة يقص عليهم أحسن القصص ويشاركهم بالاستماع وهو يحكم بين المتخاصمين بالعدل والإنصاف والحق بعد أن يلزمهم أمام الاخيار الحاضرين بضرورة الالتزام بفراضته ، فالكل يتعلمون لأن المضيف مدرسة وعريب العُربة أحسن معلم يتعلم منه الرجال.

حدثت مشكلة عائلية في بيت عريب العُربة بين شياع ابن عريب العُربة الكبير وزوجته بنت عمه، تطلب الأمر تدخل أبو شياع بالأمر ، واستمع إلى ولده شياع وبنت أخيه حبيبة ورأى أن الحق مع حبيبة ، فأنَّب ولده شياع وزجره وأسمعه كلامًا غليظًا.

زعل شياع وغادر الدار غاضبًا وتوجه إلى بيت صديق والده الحميم شيخ مزعل وطلب حمايته من أبيه ورد اعتباره بعد الإهانة التي تلقاها من أبيه وأقسم أيمانًا غليظة أن لا يعود لبيت أبيه.

شيخ مزعل يعتبر شياع مثل ولده ويحبه كثيرًا ، رحب به أجمل ترحيب وهدئه وطلب منه أن يستريح ويتناول طعام الغداء معه.

قال شياع:

- يا شيخ قبل أن أجلس أريد أن تعاهدني أن أبقى عندك وتجد لي عملاً هنا عندك، وأن لا تضغط عليَّ بالعودة لبيت أبي لأني مغتاظ[1] ومهموم وأبي لم ينصفني ويعطيني حقي.

- لا تتعجل يا ولدي لك ما تريد أنت من اليوم المسؤول عن المضيف، وهذا العبد حمود والقهوجي عكاب طوع أمرك ورهن إشارتك، فتوكل على الله ولا تاكل هَمْ طالما عمك مزعل موجود.

خُصصت الصريفة[2] التي بجانب المضيف إلى شياع والتي تقابل بيت الشيخ وتراقبه وتحرسه، وبجانبه صريفة أخرى ينام فيها حمود وعكاب ومعدات إعداد القهوة ومستلزمات الضيافة.

علم عريب العُربة من صديقه الشيخ مزعل أن ولده شياع عنده بالحفظ والصون، وأنه يشير عليه أن يتركه يرتاح فترة من الزمن إلى أن تهدأ النفوس وترتاح، فوافق عريب العُربة: وقال أمرك يا شيخ.

• • • •

---

**(١) مغتاظ : زعلان.**

**(٢) الصريفة : كوخ من القصب.**

انقضى أسبوع على زواج الشيخ، وزوجته الكبيرة سعدة تقدِّم خدماتها وكل ما لذَّ وطاب لهما، وكالعادة بعد أسبوع الزواج العروسة تبدأ العمل في البيت، وأعمال البيت في الريف كثيرة ومتنوعة تتحمل أعباءها المرأة دون الرجل، فهي التي تملأ الماء من النهر وتعقِّم قسمًا منه كماء صالح للشرب بواسطة الحب [١] والحبانة [٢] ومحلول الشب، وهيَ التي تحصد علف الحيوانات وتحلب الأبقار والجاموس وتنظِّف المراح، وتهبش الشلب، وتجمع البيض، وتعمل الروب [٣] والقيمر [٤]، وتخض الروب لاستخراج الزبدة والاستفادة من اللبن للشرب في كل الأوقات. فهي تدور كالناعور طول النهار، لتخلد إلى النوم عندما يخط الليل وتطارد عجلات الظلام عجلات النهار وتذهب الشمس إلى مقرها ويضيء القمر عوضًا عنها إذا كان بدرًا. حسنة متعودة على هذه الأعمال منذ صغرها وما زالت شابة صغيرة لم تتجاوز العشرين بأي حال وعليها معاودة العمل في البيت.

---

**(١) الحب: إناء كبير من الفخار لتبريد الماء.**

**(٢) الحبانة: إناء أصغر من الحب لتبريد الماء.**

**(٣) الروب: الخاثر.**

**(٤) القشطة.**

سعدة طبيعي لا تعمل لأنها زوجة الشيخ الكبيرة ولأنها أصلاً بنت شيوخ يداها ناعمة وطول الوقت على أربعة وعشرين حبة معدلة مرتبة معطرة محناية مديرمة تفوح منها رائحة المسك والعنبر والسعد.

استمرت كل الأمور تدار من قبل سعدة، والشيخ يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة وينام عندها ويأكل من يدها ويقبلها صباحًا ومساء ولا يذهب إلى حسنة إلا عندما يشعر أنه بحاجة لشهوة طارئة.

في الشهر الاول من الزواج حبلت حسنة وانقطعت عنها العادة وانتظروا شهرًا آخر فتأكد لديهم الحمل، وبعد التشاور مع أم محمد المولدة أكدت لهم ذلك... لكن عريب العُربة والمعلم سالم نصحوا الشيخ أن يذهبوا إلى مركز العمارة للدكتورة ندى لإجراء الفحص الطبي... وبعد أخذ عينة من الإدرار تأكد بالدليل القاطع أن حسنة حُبلى، لكنهم لا يعلمون نوع الحمل؛ ولدًا أو بنتًا، بسبب عطل جهاز السونار الوحيد في مختبر المدينة.

عادوا جميعًا للقرية فرحين، لكن سعدة طلبت من الجميع أن يكون الأمر سرًا لغاية نهاية الشهر الرابع إلى أن يتحرك الطفل في بطن أمه وخوفًا من الحسد.

## (٢)

سماري فلاح من عشيرة السواعد يعمل بجد وهمة عالية مع عائلته في زراعة أراضي شيخ مزعل ، وهذه الأرض مخصصة لزراعة الحنطة على ضفة نهر الجادل قريبة من مضيف عريب العُربة ، سماري طول النهار يكدح مع زوجته وابنه وابنته الصغيرين في الأرض ، سقيها ، حراستها ، حمايتها من الطيور والحيوانات ، فتح قنوات السقي وغلق أخرى ، وهكذا طول النهار... غداؤهم بسيط عبارة عن خبز تنور أو خبز تمن وسمكة مشوية بالتنور يصطادها سماري أو يحصل عليها مجانًا من صيادي هور السناف القريب منهم ، وقليل من البصل الأخضر الذي يزرعونه مع الثوم والكراث وأنواع أخرى من الخضروات في أرض مرتفعة قليلاً في طرف المزرعة ، وعند المساء يستحم في النهر ويعود لبيته البسيط المبني من القصب والبردي المتوفر في الهور... يلبس سماري دشداشة بيضاء نظيفة وعباءة وكوفية وعقال ويذهب إلى مضيف عريب العُربة لتناول القهوة وأكل وجبة العشاء في المضيف والاستمتاع بحكايات عريب العُربة الجميلة.

تعود عريب العُربة إعداد وجبة عشاء لرواد مضيفه كل يوم وعادة تكون وجبة العشاء من الرز الأبيض (التمّن) والروب (الخاثر) والفجل والتمر ، لأن الوضع الاقتصادي لهذا الرجل

الحكيم الكريم جيد جدًا حيث يملك أرضًا زراعية يزرعها لحسابه الخاص ملك صرف ، ويملك حلال سبعة من الأبقار الحلوبة كل بقرة لها اسمها مثل: الجنوبية، البگعة[١]، الدبسة[٢]، الحمرة ، أم الخير ، أم الدسم ، وهكذا لغرض التمييز ، فالحليب متوفر بكثرة تزيد عن الحاجة ، كذلك يملك عددًا من الأغنام وكثيرًا من الطيور الداجنة مثل البط والأوز والدجاج.. والأيدي العاملة متوفرة لأن عريب العُربة متزوج ثلاث نساء ولادات ولديه ما شاء الله من البنين والبنات، عائلة كبيرة بمعنى الكلمة.

أحيانًا عندما يكون الصيد وفيرًا في الهور والأنهار الفرعية وخاصةً في موسم الصيف، معظم الصيادون يعطون للمضايف حصة من السمك الذي يصطادونه وخاصةً في موسم الزرة [٣] وعمومًا هناك في العشيرة ثلاث مضائف كبيرة، مضيف الشيخ ومضيف الحكيم عريب العُربة ومضيف أبو تريكات [٤] كدلالة على وجود المضيف يشاهد من بعيد للقادمين من الهور بزوارقهم خاصةً ، وهنا تكون وجبة العشاء في المضيف خبز تنور وسمك مشوي بالتنور مع كمية من الخضروات.

---

**(١) البكعة : المرقطة.**
**(٢) الدبسة : الداكنة إلى السواد.**
**(٣) الزرة : وفرة الأسماك في الأنهار والأهوار.**
**(٤) أبو تريكات : أبو المصابيح المنورة.**

ينضج المحصول عادةً في شهر نيسان شهر الخير والحصاد وتزدهر الأراضي الزراعية بالسنابل الذهبية ويبدأ موسم الحصاد، ويبذل سماري وزوجته جهدًا استثنائيًا بحصاد الحنطة ودوسها وتذريتها وتجميعها في بيدر عالي يسلب الأنظار لجماله وروعته ولونه الذهبي الذي تنعكس عليه أشعة الشمس وابنه وبنته ينشّان الطيور بأعلام بيضاء عنه لكي لا تقترب منه وتلتقط بعض الحبات رغم وجود خروعة الخضرة [١] فوق البيدر وفِي المزرعة، ولكن يظهر أن الطيور قد تعودت عليه فأصبحت لا تخافه.

في اليوم التالي يأتي السركال [٢] واسمه خماس ومعه الوزان والسيد [٣] والمسؤول عن ماكينة السقي، فيزن ٧٥٪ من البيدر حصة الشيخ مزعل صاحب الأرض و١٢٪ حصة السركال و٥٪ حصة السيد و٣٪ حصة الماء، فيبقى من البيدر ٥٪ فقط يوزعها سماري على الحداد والبقال والنجار تسديد ديون عليه خلال الموسم، ينظر سماري إلى البيدر الذي تبخر أمام عينيه ولَم يبقَ منه شيء يذكر غير تراب الحنطة.

---

**(١) خروعة الخضرة : خيال المآتة.**

**(٢) السركال : وكيل الشيخ.**

**(٣) السيد : حفيد رسول الله ، له الخُمس كشرع.**

هنا تصرخ زوجة سماري بعالي الصوت: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر وتسقط مغشيًا عليها. يمسك سماري مسحاته (معوله) ويهوس : ما چنك زارع يسماري ، ماچنك زارع يسماري ، ماچنك زارع يسماري [١] ويسقط مغشيًا عليه. بنتهما تبكي فوق رأس أمها وولدهما يبكي فوق رأس أبيه ، ولا من معين ولا نصير لهم.

• • • •

حسنة زوجة الشيخ مزعل الصغيرة مدللة لأنها حامل، وسعدة زوجة الشيخ مزعل الكبيرة تخدمها وتداريها، شيخ مزعل انتبه لذلك فطلب من سعدة أن تستعين بخادمة تخدم حسنة وتساعدها لأن أعمال البيت كثيرة وهو يخاف على حمل حسنة الذي يترقبونه مثل الهلال، فتقول له سعدة: والله أنا ما قصرة يا شيخ فيرد عليها: والله يا سعدة أعرف.

تمر الأيام سريعة، وتلد حسنة ولدًا جميلاً يسميه الشيخ "حسن" لحُسنه وجمال صورته ، يفرح شيخ مزعل فرحًا غامرًا ويكاد يطير من الفرح ، ويطلب من شياع وحمود وعكاب زَفَّ البشرى لأبناء العشيرة وإقامة الأفراح وذبح ثور وتوزيع لحمه على الفلاحين، وفي الغد إقامة مأدبة غداء في المضيف بذبح

---

**(١) ماچنك زارع يسماري : كأنك لم تزرع شيئًا يا سماري المسكين.**

عدد من الأغنام الذكور ، وعند المساء يقام حفل كبير في المضيف يحضره مطربو الريف المعروفون وتوزيع الحلوى على الجميع.

يطلب الشيخ من حسنة الاهتمام بوليدها والعناية به والتفرغ التام لتربيته تربية صالحة كوريث للشيخ بعد عمر طويل.

تلاحظ سعدة اهتمام شيخ مزعل بحسنة والعناية الفائقة بها وقضاء معظم وقته في غرفتها...

الطفل مع الأيام يكبر ويحلو بعيون شيخ مزعل وهو مازال طفلاً رضيعًا.

تشكو حسنة من شحة حليبها الذي لا يكفي للرضيع، فيطلب من سعدة أن تجد على الفور مرضعة تساعد حسنة في إرضاع الطفل، فتقول له:

- حاضر يا شيخ، دع مثل هذه الأمور لي أنا أديرها، ولا تتعب نفسك بأمور النساء وانتبه لأعمالك ومضيفك وضيوفك.

- سعدة إنه حسن ولدي وريثي قطعة من كبدي... هذا حسن يا سعدة، أحسن من المال والمشيخة وكل ما أملك.

سعدة رغم حبها للطفل حسن ورغم رجاحة عقلها ورغم أنها أصرت على زواج شيخ مزعل من حسنة من أجل الولد؛ لكنها بدأت تتوجس وتخاف من اندفاع الشيخ وتعلقه بحسنة وابنها، وهي تعيش بوادر إهماله لها والاهتمام بحسنة وطفلها، وكانت

تمنّي النفس أن يكون طفلها وتربيه على مزاجها وأن حسنة ما هيَّ إلا حاضنة للطفل لا غير ، لكن الأمور بدأت تسير بما لا تشتهي السُّفن ، وهذا يعني أنها تدريجيًا ستفقد مركزها في المشيخة وقيمتها عند الشيخ...

- ماذا فعلتِ يا سعدة بنفسكِ وأنتِ العاقلة الحكيمة؟ لقد كان شيخ مزعل مثل خاتم في إصبعك... سعدة تحدث نفسها.

مع الوقت تغير الحال وأصبحت كفة حسنة خادمتها المطيعة هيَّ الراجحة ، سبحانه مغير الأحوال... لابد من عمل يعيد المياه إلى مجاريها.

• • • •

تمر الشهور ويأتي شهر تموز الحار ، ومن شدة حرارته ينشف الماء من الكوز ؛ كما يقول العراقيون ؛ فينام الناس من أهل الريف في الهواء الطلق في باحة الدار المسيجة بالقصب على تخوت [١] مصنوعة من الخشب أو من جريد سعف النخيل ، وهكذا عائلة الشيخ تنام في باحة الدار المستورة بالقصب ، أما شياع وحمود وعگاب ينامون قرب المضيف في الهواء الطلق بجانب باحة دار الشيخ.

---

**(١) تخوت : سراير من الخشب أو من جريد النخيل.**

شياع سهران جفاه الكرى ، اشتاق لزوجته وأولاده وزاد أمه وطبيخها ومضيف أبيه، وهو يقلب الأمور ولماذا لم يأتي أبوه وهو يعلم مكانه ويرجو منه العودة لبيت أبيه ؟

كان القمر بدرًا وشياع تارةً ينظر إلى النجوم التي تطرز السماء وساعةً يركز على جمال القمر وضوئه وتارةً يسمع نباح الكلاب وتلاطم موجات ماء النهر وابلام الصيادين المتهادية التي تصيد السمك بالفالة[1] على ضوء الفوانيس[2].

شياع يسمع حركة في باحة بيت الشيخ ظنًا منه أنه حرامي (سارق) فيجلس القرفصاء على سريرة ويجول بنظره من خلال فتحة في الخُص [3] غير محكمة فيشاهد امرأة الشيخ الصغيرة حسنة تقترب من كاروك [4] الطفل وتغرز إبرة نوعًا ما طويلة في المنطقة الرخوة من رأسه (اليافوخ) وتعود إلى فراشها القريب جدًا من كاروك الطفل... وبعد وقت قصير مرَّ على شياع وكأنه دهر ؛ تصرخ حسنة بعالي الصوت بعد أن تأخذ ابنها على صدرها بحجة إرضاعه:

- يمه ابني ما يتحرك، يمه ابني ما يتنفس، يمه ابني مات.

---

**(١) الفالة : عدة صيد تشبه الرمح ولكن بخمسة رؤوس مدببة.**

**(٢) الفوانيس : مفردها فانوس أي قنديل.**

**(٣) الخُص : سياج من القصب.**

**(٤) كاروك : سرير صغير هزاز.**

وتكرِّر الصراخ عدة مرات... فيهرع الجميع : الشيخ وزوجته الكبيرة سعدة وشياع وحمود وعگاب، تأخذ سعدة الولد من أمه تنفضه، تطبب على خديه بالراحة، تضع إذنها على صدره ثم تضع أصابعها بحنية على جانب رقبته تحاول أن تفتح عينيه أو فمه ، دون فائدة ، فتصرخ هي الأخرى... يتجمع الجيران ، يسارعون لاستدعاء الموظف الصحي ، الذي يقوم بفحص الطفل فيجد أن جسمه بارد ولا حياة للطفل، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا.

يظل الجميع في هرج ومرج إلى أن بانت خيوط الشمس وانبلج الصباح بعد أن هزمت جيوش النهار جيوش الليل.

هيئَّ شياع ومعه مساعداه المضيف وتوافد أهل القرية والشيخ مزعل مهضوم مكلوم وقد أسند رأسه بين ركبتيه، وصريخ النساء بدأ يتعالى ، وهو يسمع مندهشًا ان زوجته الصغيرة حسنة تتهم زوجته الكبيرة سعدة بقتل ولدها حبيبها فلذة كبدها.

## (٣)

نعود إلى المساكين سماري وعائلته...

أفاقوا من هول الصدمة وجلسوا وشربوا شيئًا من الماء وغسلوا وجوههم ونكثوا ثيابهم من التراب وحضنوا أولادهم ، وفِي صباح اليوم التالي قرروا ترك القرية وترك العشيرة لما لاقوه من ظلم وتعسف.

شياع يتعاطف مع سماري وينصحه بالشكوى على السركال خماس عند والده عريب العُربة لعله ينصفه ويعيد له حقه الذي ضاع، وسماري غير مقتنع لأن السركال يعني الشيخ، وعريب العُربة صديق الشيخ، وهو فلاح أجير في أرض الشيخ لا حول ولا قوة، فحط عينه في عين الله وقرر السفر.

صباح اليوم التالي يحضر سماري زورقه ويأخذ متاعه وملبسهم وفراشهم وزوجته وأولاده وكل ما يملكون من حطام الدنيا عبارة عن فراش بسيط وأواني طبخ مستهلكة أكلها وسودها دخان القصب والمطال [١] ، ويندفع في عمق هور الحويزة يبحث عن ملاذ في إحدى القرى المنتشرة على حافة الهور من الجانب الآخر.

---

**(١) المطال : أقراص مجففة تُصنع من مخلفات البقر.**

بعد ساعات طويلة من التجديف وصلوا بالقرب من قرية سبق أن زارها مع أبيه رحمه الله عندما كانا يأخذان الطيور التي يصيدونها لبيعها على أصحاب السيارات القادمة من البصرة لشراء الأسماك والطيور بأنواعها ، يستفيدون من هذا المبلغ البسيط في شراء الشاي والسكر وقليل من الأقمشة الرخيصة الثمن للاستفادة منها في العيد القادم.

يدخل سماري بزورقه من خلال ممر مائي سريع الجريان يربط الهور بالنهر فيدور الزورق عدة دورات سريعة لوجود خورة [١] عميقة ، يفقد سماري السيطرة على الزورق فتسحب السويرات المائية الزورق إلى الأعماق فيغرق الزورق ومن فيه، يحاول سماري بكل ما أوتي من قوة إنقاذ زوجته وأطفاله، ولكن دون فائدة.

تجمع الناس على حافة الهور ، وهرع رواد المضيف القريب من الحادث ولم يجرؤ أحد منهم على فعل شيء ، وسماري يصارع الموت مستفيدًا من قوته ، فيتم إنقاذه بحبل النجاة الذي يرميه له أحدهم ويتشبث به وهو بأخر نفس، يسحبه الرجال من النهر بصعوبة ويحملونه إلى المضيف ويسقونه شيئًا قليلاً من الماء وهو يبكي ويندب حظه العاثر وقراره الخاطئ... وبعد أن

---

**(١) خورة : سويرات مائية شديدة الدوران تشبه عين الإعصار.**

يفيق من هول الصدمة يحكي قصته لشيخ العشيرة والدموع تحرق وجنتيه ونشيجه يقطع القلوب الرحيمة.

شيخ العشيرة واسمه بنيان يقول له:

- لا تخف يا ولدي، ان رأس المال موجود.

- وأين رأس المال يا شيخ، كل شيء ضاع.

- لا لا يا ولدي، رأس المال موجود.

- يا شيخ ضاعت زوجتي وفقدت أولادي وزورقي وكل مافيه وأنت تقول رأس المال موجود؟ عجيب !

يرد الشيخ بهدوء وحكمة:

- لا تخف يا ولدي، رأس المال موجود.

- يا شيخ يهديك الله أنا لا أرى شيئًا، وأنت مازلت تقول: رأس المال موجود.

- ستفهم يومًا يا ولدي كلامي هذا.

أمر شيخ بنيان السركال حميد أن تتم العناية بسماري وأن يكسوه بكسوة جديدة ويقدم له الطعام، وقال له:

- هذا الرجل المنكوب ضيف عزيز ، فإن رغب العيش معنا فابنوا له صريفة[1] وليعمل حاليًا في المضيف إلى أن نجد له

---

**(١) صريفة : غرفة من القصب.**

عملاً يناسبه، وإذا رغب العودة لعشيرته فأعطوه أحد أبلامي (زوارقي) تعويضًا عن زورقهِ ، وحاولوا إنقاذ زورقه والعثور على جثث المرأة والأولاد ، الله يرضى عليكم يا نشامى.

وهكذا تم إنقاذ زورق سماري وتم إصلاحه، وتم العثور على الجثث في اليوم التالي طافية على وجه الماء منتفخة على بعد أكثر من كيلو متر في النهر ، نُقلت الجثث إلى الجامع وصلى عليهم شيخ الجامع والسادة وشيخ العشيرة بنيان ومجموعة من الرجال وحملوهم إلى مثواهم الأخير إلى المقبرة القريبة ، وسماري يلطم وجهه والدموع تنزل مدرارًا من مقلتيه التي ذبلت بين ليلة وضحاها...

- إنه القدر يا ولدي وسوء التدبير وقلة المعرفة لأن هذه الخورة لا يدخلها عاقل بزورقه، وياما أكلت ناس، ولا نعرف كيف نُعلمها.

اقترح معلم القرية "كريم" أن توضع يافطة تحذير على جرف النهر ، فأمر الشيخ بذلك، وطلب من وكيله السركال سلمان أن ينفذ ذلك لإيقاف المزيد من الخسائر بأرواح الناس.

ارتاح سماري ثلاثة أيام في مضيف الشيخ معززًا مكرمًا ، يحيط به عدد من أخيار العشيرة يقصون عليه مأساة الحسين بن

علي ، وهو له أسوة حسنة بجده الحسين. وأقاموا في اليوم الثالث ثوابًا على أرواح الشهداء لأنهم ماتوا غرقى.

قرَّر سماري وبعزيمة لا تلين ان يعود لقريته وعشيرته وهكذا كان.

عاد سماري مكسور الخاطر والجناح إلى بيته ، والتفَّ حوله أولاد عمومته يواسونه ويزودونه بالطعام والشراب، وجلبوا له شيئًا من الملابس والطعام وشيئًا من الفراش والحاجيات الأساسية التي يحتاجها لديمومة العيشة والحياة البسيطة المتواضعة.

طلبه الشيخ مزعل في المضيف ، فجاء الرجل منكس الرأس وعيونه مغرورقة بالدموع ، فسلم وجلس بجانب الشيخ والنَّاس تعزيه بمصابه الجلل : البقاء في حياتك يا سماري... تكررت عشرات المرات، وهو يرد بإيماءة من رأسه.

الشيخ قال بصوت جهوري:

- يا سماري ، تعود لأرضك وعملك ، وهذه عشرة دنانير من صندوق العشيرة وخمسة مني لإصلاح وضعك وتعمير دارك، وسأطلب من الجميع مساعدتك على حراثة أرضك.

وأمر السركال أن يعطيه الحبوب اللازمة لزراعة الأرض ، وأمر أن يقام مجلس عزاء يوم الجمعة ترحمًا على أرواح عائلة سماري الشهداء.

شكر سماري الشيخ وقبَّل رأسه وأراد تقبيل يديه، ولكن الشيخ سحب يده من سماري وربت على كتفه قائلاً له: أنت ولدي يا سماري.

شيخ مزعل يدعو الجميع لحضور مجلس العزاء يوم الجمعة ويبعث رسول إلى عريب العُربة وأبو تريكات يطلب منهما الحضور يوم الجمعة.

حضر الجميع، فاكتظ المضيف بالناس من أهلهم وأعمامهم والضيوف من القُرى المجاورة، وتشاور الشيخ مع عريب العُربة وأبو تريكات واتخذ قرارًا يحب إعلانه على الجميع، فنهض واقفًا وعدل عباءته على كتفيه، وسمَّى باسم الله وحمده كثيرًا على نعمته، وقال:

- اسمعوني، لقد قررتُ من اليوم بعد الاتكال على الله أن تكون حصة الشيخ من محصول الأرض ٥٠٪ بدلاً من ٧٥٪ وتكون حصة السركال ٨٪ بدلاً من ١٢٪ وتكون حصة الماء ٢٪ بدلاً من ٥٪، أما السيد فهذا حق جده، والباقي للفلاح الذي يزرع الأرض.

هلَّل الجميع وكبروا وحيوا الشيخ مزعل ودعوا له بطول العمر والصحة والعافية وأن يبقيه الله خيمةً عليهم طول العمر.

وازن شيخ مزعل الأمور في ممتلكاته وموارده من أملاكه في الأراضي الزراعية الواسعة وجهود الفلاحين المضنية على

مدار الموسم وهم لا يمتلكون شيئًا من متاع هذه الدنيا غير الضيم والتعب، ويعتاشون على النزر القليل من الطعام البسيط الذي يسد رمقهم ويديم لهم الحياة لمواصلة العمل اليومي المجهد في زراعة أراضي الشيخ، كذلك موارده من أملاكه الكثيرة في مركز الولاية [١] ومن مخازن الحبوب التي تباع بالجملة للوكلاء لتوزيعها على المحلات في العمارة والبصرة مقابل أثمان عالية حسب العرض والطلب.

أحيانًا يدفع الجشع والتحكم بمقدرات الناس إلى حجب مادة غذائية أو أكثر مثلاً الرز العنبر والسمسم عن الاسواق فطبيعي تزاد الأسعار لأن الطلب يصبح أعلى من العرض وبذلك تزداد أرباح التجار وبالتالي تزداد أرباح الشيخ، والضحية المواطن الذي لا حول ولا قوة، ولا يستفاد شيئًا البتة الفلاح الذي يزرع هذه المواد ويسقيها بماء عيونه وبدم قلبه.

الشيخ يفكر طويلاً بضرورة زيادة موارده وتعويض النقص الذي حصل بتقليل حصته من حاصل الأراضي الزراعية في ساعة رحمن، فيصدر أمرًا إلى السركال خماس بمضاعفة الكودة [٢] على الصيادين ورفعها من دينار إلى دينارين.

---

**(١) مركز الولاية : مركز محافظة العمارة.**

**(٢) الكودة : الضريبة.**

يُصاب الصيادون بالهلع والضجر، ويتجمعون على حافة الهور بما يشبه المظاهرة السلمية دفعًا واحتجاجًا لهذا الظلم البغيض... يتناهى الخبر إلى الشيخ الذي يدعوهم جميعًا إلى المضيف ليسمع شكواهم.

يتجمع جميع الصيادين في المضيف، إلا الصياد خنيفر القوي المتعافي، يسأل الشيخ السركال خماس:

- هل الجميع حاضرون يا خماس؟

- نعم يا محفوظ، إلا خنيفر.

وهنا انبرى أحد الصيادين مخاطبًا الشيخ:

- يا شيخ، السركال لا يأخذ الضريبة من خنيفر لأنه يخاف منه وخنيفر هذا لا يسمح لنا بالصيد في المكان الذي حدَّده لنفسه في عمق الهور.

الشيخ يسأل السركال:

- صحيح هذا الكلام ياخماس !؟.

- نعم صحيح يا محفوظ.

- لماذا يا خماس؟ وما هو الصحيح هذا ؟

- محفوظ، خنيفر قوي مفتول العضلات طويل القامة قوي البنية لا يستطيع أربعة رجال أن يمسكوا به، فماذا أفعل وهو لا يدفع الضريبة بالمروءة.

ينفعل ويغضب الشيخ ، ويأمر ثمانية من الحوشية [١] أن يتسلحوا ويندفعوا بأربعة زوارق إلى عمق الهور للقبض على الصياد خنيفر وتكتيفه بالحبال وتقديمه مذنبًا أمامه.

وما هي إلا ثلاث ساعات وخنيفر في مضيف الشيخ مربوطًا بالحبال وقد أشبعوه ضربًا حتى خارت قواه، ورموه عند قدمي الشيخ، الذي يضع حذاءه على صدر خنيفر، ويقول له:

- يا كلب يا ابن الكلب، لماذا لا تدفع الگودة ؟

فيرد السركال خماس:

- محفوظ، منذ ثماني سنين وهو لا يدفع.

الشيخ:

- اسمع خنيفر ، تدفع الآن وفورًا ثمانية دنانير ، وإلا أسلخ جلدك بهذا الخيزران [٢].

يرد خنيفر بصوت متهدج:

- مولاي والله ما عندي فلوس ، والعباس أبو فاضل ما عندي فلوس، والحسين الشهيد ما عندي فلوس.

- طيب خنيفر الكلب أمامك ثلاث خيارات :

---

**(١) الحوشية : حاشية الشيخ وحرسه الخاص.**

**(٢) الخيزرانة : عصا مرنة.**

إما تلهم [١] ثلاث لهمات من هذا الخثي [٢]، أو حمود هذا يضربك بنعاله الشطراوي [٣] هذا ، أو تدفع ثمانية دنانير بالتمام والكمال.

- مولاي، ألهم الخثي وأمري إلى الله.

وفِي أول لهمه يكاد خنيفر يموت من التقيؤ والغثيان، فيقول:
- مولاي، دع حمود العبد يضربني بنعاله هذا ثماني ضربات، والله الساتر.

حمود عبد أسود من أصول أفريقية ، طويل القامة عريض الاكتاف مفتول العضلات، يخلع نعاله الشطراوي اليابس ويقف على رأس خنيفر ويضربه ضربة قوية بنعاله الشطراوي المتين على رأسه ، فيتطاير الشرر من عيني خنيفر ويسقط مغشيًا عليه من هول الضربه التي كادت أن تكون قاتلة.

يصيح خنيفر بعد أن صبوا على رأسه الماء وأفاق من الغيبوبة:
- مولاي أنا دخيل الله ودخيلك ، ادفع والحسين ادفع ، حرروا يداي وأنا أدفع بكل ممنونية [٤].

---

**(١) تلهم : تأكل.**
**(٢) نعال شطراوي : نعال خاص يصنع في مدينة الشطرة ، متين وثقيل.**
**(٣) الخثي : مخلفات الحيوانات.**
**(٤) بكل ممنونية : بكل رضا وقناعة.**

يأمر الشيخ بتحرير يديه، ويُخرج خنيفر صرة الفلوس من عبه ويعد ثمانية دنانير ويسلمها إلى السركال خماس وهو ذليل مغلوب على أمره، والصيادون يضحكون عليه.

يرتاح الشيخ مزعل نفسيًا بعد أن عوَّض النقص في الموازنة العامة لأرباح الشيخ السنوية من الصيادين المساكين.

( ٤ )

والآن نعود لحكايتنا مع شيخ مزعل وزوجتيه حسنة وسعدة ، والحادث الجلل بموت الطفل الرضيع ابن حسنة ، ولا ننسى شياع وحمود وعگاب المسؤولين عن إدارة المضيف...

شيخ مزعل في حيرة من أمره، لا يعرف ماذا يفعل وقد غص المضيف بالرجال وغص بيت الشيخ بالنساء ، وكل اثنين بحكاية وكل اثنين بتأويل وكل اثنين باجتهاد وحدس... وفجأة يأمر شيخ مزعل السركال خماس بسرعة استدعاء الحكيم عريب العُربة، وهكذا كان.

وبعد ساعتين من الزمن طويلة والكل بالانتظار والشيخ يضرب أخماسًا بأسداس وكأنه جالس على الجمر ؛ يرسو زورق عريب العُربة امام المضيف. الحكيم عريب العُربة يشاهد الهرج والمرج وهو يسرع بدخول مضيف الشيخ ويرى الشيخ قد نكس رأسه وعصب رأسه ودمعة تترقرق في عينيه جالسًا في صدر المضيف كما تعود.

سلَّم عريب العُربة وجلس بجانب الشيخ وهو مندهش رغم ما سمعه من السركال في طريق العودة سويةً، فبادر بالسؤال:
- خير يا شيخ إن شاء الله؟

- خير ؟ أي خير أبو شياع ، مصيبة كبيرة وحطت علينا ، ساعدني أبو شياع بحلها الله يرضى عليك ، اليوم يومك أبو شياع، ما عندي غير الله وأنت لحل هذه البلوى.

فردَّ أبو شياع :

- إن شاء الله خير ، وكل عقده ولها حلال ، دع إيمانك قوي يا شيخ بالله وأنت إنسان مؤمن ، الله أعطاه لك والله أخذه منك ولا رادٍ لإرادة الله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وقرأ آيات من الذكر الحكيم لتهدئة الشيخ وإعطائه جرعة من الصبر والجلد.

- ما الحكاية يا شيخ بالضبط؟

الشيخ يقص على صديقه الحميم أبو شياع القصة بألم شديد ويحاول أن يكون جلدًا متماسكًا، ولكن دموعه تخونه أحيانًا.

- طيب يا شيخ ، فهمت الحكاية واستوعبت أبعادها وما يصير إلا خاطرك طيب وسأجد من خلال خبرتي حلاً مقنعًا للموضوع أُرضيك وأُرضي ضميري وقبل كل شيء أُرضي الله جلَّ جلاله ، والآن أحتاج إلى غرفة محكمة الباب بعيدة نوعًا ما عن هؤلاء ، الناس وأريد زوجتك الكبيرة سعدة لوحدها.

يجيب الشيخ:

- تأمر ، حاضر يا أبو شياع، هذه الغرفة المطلوبة وهذه سعدة، والله كريم وبه نستعين.

عريب العُربة يختلي بسعدة زوجة الشيخ الكبيرة الشخصية القوية ، المرأة العاقلة الحكيمة تستشيرها كل نساء القرية ويحبها ويحترمها الجميع رجالاً ونساءً، مشكلتها الوحيدة أنها لم تنجب؛ ربما لخلل فسيولوجي بالرحِم، والله أعلم.

عريب العُربة وسعدة وجهًا لوجه في الغرفة ولا ثالث معهما... سادت فترة من الصمت وهو ينظر بعيون سعدة ويتفحص وجهها ورعشة يديها، وفجأة بادرها القول:

- تسمعينني جيدًا يا سعدة، وأنا أعلم علم اليقين مكانتك ومحبتك عند الشيخ وعند العشيرة وعندي أنا ، أنتِ يا سعدة بنت شيوخ ومن عائلة لها اسمها ومكانتها في العشيرة وأهلك من أخيار القوم، والشيطان يا سعدة شاطر تمكَّن منك في ساعة ضعف فقلتِ مع نفسك بعد أن غلبتك الغيرة وأنتِ تحسين أنك فقدتِ جزءًا كبيرًا من شيخ مزعل وأصبح لحسنة حظوة ومنزلة عند الشيخ لكونها أصبحت أم الوريث الشرعي للشيخ وقلتِ مع الوقت رويدًا رويدًا ستؤول الأمور كلها إلى حسنة خاصةً بعد أن يكبر المولود ويحلو بالعيون ويحبه ويقربه الشيخ ويتعلق به ، ويكون الولد سندًا وعونًا لأمه لترجيح كفتها ، وسوس لك الشيطان يا سعدة وقررت التخلص من

الولد مادام طفلاً رضيعًا، وهذه قناعتي يا سعدة وقناعة كل عاقل.

يردف أبو شياع:

- يا سعدة اتقي الله فينا وفيكِ واعترفي هداكِ الله لترتاحي ويرتاح ضميرك، وأنا كفيل بحل الموضوع مع شيخ مزعل وأعاهدكِ أن لا يصيبك أي ضرر.

تنتفض سعدة وترد على الحكيم:

- أنت بربك حكيم وتستشيرك الناس بأمورهم وهكذا تحل الأمور بالباطل وتفتري عليَّ وتلبسني جريمة أنا بريئة منها، الله ينتقم من كل ظالم، الله ينتقم من كل جاهل يدعي الحكمة والعدل والإنصاف.

عريب العُربة بمنتهى الهدوء والروية يهدئ من روع سعدة كي لا تندفع بشتمه وإهانته:

- على مهلكِ يا سعدة، نحن نتحاور ولكل سؤال جواب، طيب يا بنت الناس أطلب منكِ طلبًا لأتأكد من صدق ما تقولين.

- اطلب ما تريد، والله يقدرني على الجواب.

- يا سعدة، أطلب منكِ أن ترفعي ثوبك فوق ركبتيك وتدخلي المضيف وتقولين: والله وتالله وبالله وحق بخت أبي وأجدادي وحق السادة والعلام الجالسين بالمضيف، والحسين المظلوم، أنا بريئة من دم ابن حسنة براءة الذئب من دم يوسف.

جفلت سعدة وأزبدت وأرعدت وقالت:

- أنا سعدة بنت شيخ صيهود على سن ورمح تريدني أن أرفع ثوبي وأدخل مضيف زوجي أمام أهلي وإخوتي وأمام الناس الغرباء، خسئت يا رجل يا مخرف، والله الموت عليَّ أهون مما تقول.

وتركته وفتحت الباب بعصبية وخرجت وهي تشتم وتلعن هذه الساعة السوداء التي جمعتها مع المخرف عريب العُربة الظالم عديم الضمير والوجدان هذا...

يتقبل عريب العُربة كلامها برحابة صدر واحترام ولا يرد عليها الكلام ويقول لها:

- اذهبي راشدة إلى بيتك وغرفتك.

وبعد أن يسحب نفسًا عميقًا، يطلب استدعاء حسنة أم الولد.

تأتي حسنة إلى الغرفة ويطلب منها الحكيم إحكام غلق الباب، ويدور حول نفسه دورتين ثم يركز في عيون وملامح حسنة وينظر إلى يديها المرتعشتين وعيونها الزائغة وهي تحاول جاهدة أن لا تنظر بعيون الحكيم، وتخفي يديها خلف شيلتها[1].

---

**(١) الشيلة : قطعة من القماش الأسود تغطي الرأس والصدر كنوع من الحجاب عند أهل الجنوب.**

يبادرها الحكيم:

- يا حسنة ، أنتِ مازلت صغيرة بالعمر ، وبين ليلة وضحاها بعد أن كنتِ خادمة في هذا البيت أصبحت سيدة وزوجة الشيخ وأم ولده حسن وريثه الشرعي ، وسوس لكِ الشيطان والعياذ بالله وقلتِ مع نفسكِ: أنا امرأة الشيخ الصغيرة على سُنة الله ورسوله وأم ولده ولكن كل الأمور تدار من قبل سعدة حتى أنا آكل وأشرب من تحت يدها ، والشيخ لا يخالف لها أمرًا ولا يرد لها طلبًا ويستشيرها بكل شيء ، ضروري التخلص منها وحتى لو تطلب الأمر ان أضحي بولدي الرضيع هذا وكلها سنة وأعوضه بمولود آخر ، وبذلك أكون تخلصت من هذا الهم ويصبح الشيخ وما يملك لي ولأولادي. وهكذا قررتِ لأن الشيطان شاطر وخنقتِ ولدك بالليل وادَّعيتِ زورًا وبهتانًا باتهام سعدة بقتل الولد ، أليس هذا الحق يا حسنة ؟ ريحينا وريحي ضميرك يا حسنة وأنا كفيل أن لا يصيبك أي ضرر وسأعالج الموضوع بحكمة وأقنع الجميع بوجهة نظري.

- أشلون أشلون أنا اقتل ولدي فلذة كبدي هذه حكايتك ما يصدقها عاقل ، أم تقتل ابنها ؛ هذه فرية يا أبو شياع تفتريها ظلمًا عليِّ والمصيبة الناس تقول عليك حكيم ، حكيم ماذا أنت؟ أنت على باطل وتحكم بالباطل والله ينتقم من كل ظالم ،

أنا شفت كثير من الظلم وسمعت أكثر ولكن مثل هذا الظلم لا سمعت ولا رأيت.

- طيب حسنة ترفعين ثوبك فوق ركبتيك وتدخلين المضيف وتقسمين أنك بريئة من دم ابنك، الآن الكلام مقبول منك.

- اسمع أبو شياع، أنا حتى أحصل على حق ولدي المسكين وأنتقم من سعدة عندي استعداد ان أضع ثوبي فوق رأسي، وإذا طلبت مني أن أخلع ثوبي هذا وأدخل المضيف فأنا على استعداد لذلك، المهم آخذ حقي وحق ابني من هذه المجرمة سعدة وتطلع من حياتي وحياة الشيخ وتُطرد من هذا البيت بيتي وبيت أولادي القادمين إن شاء الله، الله يعوضني، الله غفور رحيم.

قال لها أبو شياع:

- عودي إلى بيتك وغرفتك يا حسنة وإن شاء الله خير.

عريب العُربة يعود الى المضيف ويجلس بجانب الشيخ ومازال المضيف مكتظًا بالناس وأهل سعدة وأهل حسنة وكل الأعمام، ويطلب فنجان من القهوة ويرتشف فنجانًا وفنجانًا آخر ثم فنجان ثالث، ثم يعمر له سيكاره من نوع غازي أيام زمان.

يلتفت شيخ مزعل بوجه متجهم وشفاه يابسة ودموعه قد أثرت على وجنتيه وبصوت خافت متقطع:

- خير إن شاء الله أبو شياع؟

فيرد عليه:
- والله ليس هناك خير ، يا شيخ زوجتك الصغيرة حسنة قتلت وليدها الرضيع.

فيفغر الشيخ فاه ويسمع الجميع الحكم بذهول وينتشر الخبر ، وتهلهل سعدة ومعها أمها وأخواتها وأحبتها.

هنا وفِي هذه اللحظات الحاسمة ومازال هول الصدمة قد أسكت الناس ما عدا صوت الهلاهل يُسمع من خارج المضيف من بيت الشيخ القريب جدًا من المضيف ، يقوم شياع ابن عريب العُربة من بين حمود وعگاب مهرولاً باتجاه أبيه وهو يصرخ بعالي الصوت وبانفعال:
- صدقت يا أبي، والله صدقت يا أبي ، والحسين صدقت يا أبي، والعباس أبو رأس الحار صدقت يا أبو شياع.

وينحني مقبلاً رأسه ويديه مرتميًا في حضنه:
- صدقت يا أبي ، حكمك عادل، الآن تأكدت بالدليل القاطع أنك حكيم زمانك ولا تخطئ في أحكامك... أبي إني رأيت كل شيء والله عليَّ شهيد: ليلة البارحة والدنيا مقمرة وأنا أفكر فيك وفِي أحكامك ، وبزوجتي وأولادي وأمي وإخوتي وأخواتي ، حيث جافاني النوم وطار من عيني الكرى ؛ جلست على فراشي أدخِّن وأجتر الذكريات ، ولاحظت أن هناك حركة غريبة في باحة دار الشيخ، وعلى ضوء القمر

ومن خلال فتحة في سياج القصب رأيت حسنة تنهض من فراشها وتقترب من كاروك ابنها ، وتخرج إبرة طويلة وتغرسها في يافوخ الطفل وتعود لفراشها، وبعد زمن قصير حسبته دهرًا تعود وتأخذ ابنها على صدرها بحجة إرضاعه وتصرخ بأعلى صوتها: الطفل ما يرضع، الطفل ما يتحرك، الطفل ميت، وتهرع سعدة والشيخ، ثم تأخذ سعدة الطفل من على صدر أمه وتهزه وتنفخ في وجهه وتحاول فتح عينيه وفمه وتتحسس جسمه وتصرخ هي الأخرى : شيخ الطفل ميت لا حراك فيه وجسمه بارد ولا يتنفس. وبين ذهول الشيخ وتجمع الناس ومجيء الموظف الصحي تأكد الأمر بوفاة الطفل.

الشيخ يأمر باستدعاء الموظف الصحي ويقصون عليه ما قاله شياع ، يخرج الموظف الصحي ملقطًا طبيًا من حقيبته ويتحسس المنطقة الرخوة في مقدمة رأس الطفل ويسحب الإبرة بالملقط أمام دهشة الجميع واستغرابهم وذهولهم.

يربت عريب العربه بيده على ظهر ولده شياع ويقبله.

ينتفض الشيخ واقفًا ويعلن طلاق حسنة وإحالتها إلى المجلس العشائري [١] لمحاكمتها ، ويطلب من أهل حسنة الفصل [٢] ، فيطلبون منه عطوة [٣] فيمنحهم عشرة أيام ، بعد ذلك يتركون العشيرة ويُهاجرون.

- أمرك مطاع يا شيخ.

يعود شيخ مزعل إلى امرأته سعدة ويرتمي في أحضانها وينتحب على كتفها ويطلب السماح، ويقول لها:

- أنتِ السبب يا سعدة ، هذه قسمتنا من الحياة وهذا نصيبنا من الله تبارك تعالى ، فلنرضى بما قسمه الله لنا ولنحيا سعداء بدون مشاكل ومنغصات ولنمتع أنفسنا بهذا الحلال وهذا الخير والوفير ، وإن كان ولا بد للولد فلكِ الحق أن تتبني أحد أولاد إخوانك أو أخواتك وأنا موافق ، ولنخرج من هذا الموضوع ولنعيش حياتنا كما كنّا ، والله أرحم الراحمين.

---

**(١) المجلس العشائري : كان المجلس العشائري في النظام الملكي له صلاحيات محكمة عُليا.**

**(٢) الفصل : عُرف عشائري يعني التعويض.**

**(٣) عطوة : فسحة من الوقت لتنظيم أمورهم.**

## (٥)

نعود الآن لحكاية سماري وما كان منها...

سماري له عمه وأولاد عمه يعملون في مدينة البصرة ميناء العراق المدينة المتطورة أم الخير والعمل، ولا رغبة له بعد في زراعة الأرض ومشاكلها، ويرى أن ينسى مصيبته في زوجته وأولاده رغم الامتيازات البسيطة التي منحها الشيخ مزعل للفلاحين العاملين في أرضه، وقدَّرَ أن الفِلاحة متعبة ومرهقة ومواسم الزراعة غير مضمونة، مرة فيضان فيتلف المحصول ومرة أمطار متأخرة قبل الحصاد بأيام فيتضرر المحصول ومرة يهاجم الجراد المحصول ويقضي عليه... وهكذا.

لكل هذا قرر سماري ترك القرية والهجرة إلى البصرة... في البداية ادعى أنه ينوي زيارة بيت عمه، وفِي قرار نفسه يريد أن يطلع عمليًا على أحوالهم وعملهم وإمكاناتهم، وهل من الممكن أن يحصل على عمل مجزٍ عندهم أو بواسطتهم.

سافر سماري من المشرح إلى العمارة، ومن العمارة إلى البصرة، واستقبله عمه وأولاده في بيتهم في محلة الفيصلية [١] التي تأسست للكادحين في بداية الخمسينات، وفِي اليوم التالي

---

**(١) محلة سُميت نسبة للملك فيصل الثاني ملك العراق.**

أصطحبه أولاد عمه إلى الاسكلة [1] ، علّمه أولاد عمه السياقة وأعطوه لوري حمل ينقل به مواد البناء ، وشيئًا فشيئًا عرف المناطق وأصبح عمه يعتمد عليه... وبعد مرور عام على عمله معهم ولصدقه وأمانته وشطارته وجديته بالعمل زوّجه عمه ابنته الوسطى زينب، وأعطوه غرفة معهم في نفس الدار.

سماري كوّن علاقات مع المقاولين وتجار المواد الانشائية كلها يستفاد منها عمه، وهو لا يحصل إلا على عيشة الكفاف.

أحد المقاولين من أهالي خمسة ميل يعرض على سماري عرضًا مغريًا أن يفتح له محلاً كبيرًا لبيع المواد الانشائية المكملة للبناء مثل التأسيسات الصحية والفرفوري والسيراميك وسيتات الحمامات وأنواع الأنابيب والصوندات [2] وخزانات الماء وكل ما يحتاجه البناء ، مع سيارة بيك آب حمولة طن واحد نوع تويوتا جديدة.

سماري يفكر بعمق وفِي الليل يستشير زوجته زينب ويطلب منها كتمان الأمر ، فتوافقه زوجته على ذلك قائلةً :
- صار لك أكثر من سنتين تعمل معهم على أكل بطنك وهذه الغرفة لا غير ، وهم يحصلون بالهبل.

---

**(١) الاسكلة : ساحة لبيع المواد الانشائية لأعمال البناء.**
**(٢) الصوندات : خراطيم الماء البلاستيكية.**

سماري في اليوم التالي يوقع عقد العمل مع المقاول المعروف فيصل ويتفقان بموجب هذا العقد أن الأرباح مناصفة ولكن المحل والسيارة ورأس المال والمواد كلها للمقاول فيصل، على بركة الله يتشاركان.

سماري يرجو من المقاول فيصل أن يؤجر له دارًا من الدُّور الكثيرة التي يبنيها ، فيقول له : هذه الدار القريبة من المحل تسكنها وبدون إيجار يا سماري وبكل ممنونية.

يفرح سماري وزوجته زينب ، وتبقى مشكلة ماذا يقول لعمه وأولاد عمه، تشجعه زوجته، ولكنه يقترح عليها أن تكلف أمها أولاً بإقناع عمه والباقي عليه.

سلَّم سماري العمل إلى أولاد عمه وهم بين الرفض والقبول ، وحمل سماري حاجياته الأساسية وذهب للسكن قرب محله في خمسة ميل.

سماري لديه من الهمة والنشاط الشيء الكثير وزينب امرأة مدبِّرة تساعده حتى في تنظيم المحل وإدارته، محلة خمسة ميل في طور البناء ومحل سماري المحل الوحيد في المحلة الذي يبيع هذه المواد الضرورية للبناء وبأسعار تنافسية مع مركز المدينة العشار.

بعد ثلاثة شهور من العمل المتواصل حتى يوم الجمعة، جلس المقاول فيصل وسماري لجرد المحل لمعرفة الأرباح فكانت

مائتين وعشرين دينارًا ، وكان هذا مبلغًا كبيرًا في ذلك الزمان يستطيع المرء أن يشتري به بيتًا، قال سماري لصديقه فيصل:

- لماذا لا تأخذ مني مائة دينار هذه وتبيعني هذا البيت الذي اسكن فيه وتقسط عليه المبلغ الباقي.

المقاول فيصل يقول:

- لأجل خاطرك البيت مائتان وخمسين دينار ، أنت دفعت لي مائة دينار وكل شهر تدفع عشرين دينار وخلال أشهر قليلة إن شاء الله يسجل البيت ملكًا صرفًا باسمك يا سماري.

يعم الفرح بيت سماري لقد أصبح لهم دارًا ملكًا صرفًا وسيسجل باسمهم، حمدا الله كثيرًا وذهبا لزيارة مقام الأمير في العشار للتبارك والدعاء.

المحل مع الوقت يتوسع والأرباح تزداد ، وسماري يفتح له حسابًا في البنك يجمع فيه أرباحه ، وبعد أن يجمع مبلغًا جيدًا من المال بعد مرور أكثر من عامين يعمل ببيع وشراء البيوت الصغيرة السريعة الحركة، ويكلّف زوجته زينب بمتابعة ذلك لانشغاله بالمحل.

تمر السنون مسرعة والمقاول فيصل متمسك بقوة بسماري لصدقه وأمانته وشطارته في إدارة المحل ورفع سقف الأرباح بحيث وصل الأمر بالمقاول فيصل أن يفتح محلاً مماثلاً لأخيه

في محلة الفيصلية، لكنه لم يحقق جزءًا بسيطًا من الأرباح التي يحققها سماري.

سماري مخلص إلى المقاول فيصل ، يحبه ويرتاح إليه ، وبالمقابل المقاول فيصل يفرح بما يحققه سماري من أرباح ويقاسمه بالحق والعدل والإنصاف.

تمر ست سنوات وسماري يعمل مع صديقه فيصل ويشتري عدة بيوت في المحلة من ماله الخاص ، ويرزق الله سماري وزينب بولدين وبنت.

ويحصل في السنه السابعة من شراكته وعمله مع صديقه فيصل ما لم يكن في الحسبان ، يمرض فيصل بمرض عضال لا أمل له بالشفاء ، إنه تشمع الكبد الحاد من جراء كثرة تعاطي فيصل الخمر لسنين طويلة ، يتألم سماري على صديقه الغالي ويذهب يوميًا لزيارته في المساء بعد انتهاء العمل ويتابع مصالحه، ومع الوقت تسوء حالة فيصل الصحية إلى أن يموت رحمه الله.

يحزن سماري وزوجته زينب على صديقهما الغالي ، وبعد انقضاء مراسيم مجلس العزاء تقرر زوجة المرحوم فيصل الالتحاق مع أولادها بأهلها في بغداد ، وتكلف سماري شخصيًا بتصفية ممتلكات فيصل من الدور السكنية والمقاولات وتطلب منه تقبل المحل بعد تقييمه ودفع حصة فيصل فيه.

سماري بمنتهى الإخلاص والأمانة وعلى مدى ست شهور يصفي حسابات صديقه الوفي، ويسلّم أولاً بأول لزوجة فيصل أموالها عن طريق زوجته زينب الصديقة المخلصة لزوجة المرحوم فيصل.

آلت الأمور كلها إلى سماري حلال وأملاك ومحل كبير ومربح واسم لامع ومقاول بارع، لقد فتحها الله عليه من أوسع الأبواب بحيث أصبح بيت عمه يستشيرونه ويقترضون منه المال في أحيان كثيرة.

سماري في إحدى الليالي يقص على زوجته زينب قصته الأليمة بفقدان زوجته وأولاده قبل أكثر من سبع سنوات ويبكي وتبكي معه زينب وتشجعه على ضرورة زيارة قبورهم وإعطاء ثواب وصدقة على أرواحهم ليترحم عليهم الناس وضرورة الصلاة عليهم.

سماري وزوجته يقرران الزيارة في أيام عيد الأضحى المبارك القادم بعد ثمانية أيام ، وهكذا سماري يجهز السيارة وما يحتاجونه للسفر ، وفِي صباح أول العيد ينطلق إلى العمارة ومنها إلى المشرح ضيفًا عزيزًا عند أهل زوجته الاولى رحمها الله فيفرحون به وبأولاده : الله عوضك خيرًا يا سماري... ويقرر أن يبني لهم بيتًا من الطابوق ويعطيهم ويكسوهم.

يسمع شيخ مزعل بقدوم سماري وعائلته فيبعث بطلبه، وعندما يراه لا يصدق أن هذا سماري، يحضنه ويقبله ويجلسه بجانبه ويتبادلان أطراف الحديث وتعود بهما الذكريات إلى الماضي القريب وكيف كان الحال وكيف أصبح، ويتبرع سماري لبناء مدرسة في القرية باسم مدرسة سماري الابتدائية.

وفِي اليوم الثالث من العيد يذهب سماري وزوجته فقط إلى القرية التي غرقت بها عائلته ويذهب إلى مضيف الشيخ بنيان:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- شيخ تعرفني؟ شيخ تتذكرني؟ أنا سماري... قبل سبع سنوات غرق زورقي في الخورة ونجوت أنا وماتت زوجتي وأولادي غرقًا.

- نعم أتذكرك، وكيف حالك يا ولدي ؟

- والله بأحسن حال، مقاول مشهور وعندي زوجة صالحة وولدان وبنت.

- بارك الله فيك وفيهم يا ولدي.

- يا شيخ بنيان الله يرحم والديك، يوم المصيبة كفاك الله شر المصائب قلتَ لي: لا تخف يا ولدي رأس المال موجود، ولم أفهم معناها في حينها، فهل تفهمني الآن معناها؟

- يا ولدي سماري أقصد أنت موجود لم تغرق معهم فأنتَ رأس المال يا ولدي ، ومثلما ترى اشتغلت وربحت وتزوجت وأنجبت ولدين وبنتًا وعوضك الله خيرًا.

هزَّ رأسه سماري بالإيجاب:

- فهمت يا شيخ بارك الله فيك ، سأزور عائلتي الآن وأبني قبورهم التي علَّمتها في حينها ، وفِي عيد الأضحى القادم سأعود لزيارتكم لأتبرع ببناء جامع ترحمًا على أرواحهم ، وهذا مبلغ من المال أرجو قبوله وتوزيعه على فقراء القرية ثوابًا وترحمًا على عائلتي التي اُستشهدت غرقًا رحمهم الله وأدخلهم فسيح جناته.

عاد سماري وزوجته زينب إلى قريته بالمشرح، وزار عريب العُربة فوجده طريح الفراش وفِي أيامه الأخيرة ، فحضن عريب العُربة ولده شياع وبكى الاثنان واستمر شياع يجهش بالبكاء، ففتح أبو شياع عينيه قليلاً وبصوت خافت قال:

- يا ولدي شياع، الرجال لا يبكون.
- أبي أنا لا أبكي عليك، أنا أبكي على نفسي يا أبتي.
- كيف يا ولدي تبكي على نفسك؟
- أبي أنت سترحل وترتاح، وأنا سأحلُّ مكانك ويأتي الناس كما تعودوا من كل صوب وحدب يريدون مني الفراضة والحكم بالعدل بين الناس ، وأنا لا أعرف ذلك ، ويسخرون مني وأصبح أضحوكة بينهم.

- أطمئن يا ولدي المسألة بسيطة وسأعلمك الفراضة هذه الساعة وقبل أن أموت، اسمع يا شياع.. شياع ابني تسمعني؟

- نعم أسمعك.

- شوف شياع ابني، إن جاءك اثنان من المجانين وطلبوا منك أن تحكم بينهما بالعدل فأقسم عقلك ثلاثة أقسام متساوية: ثُلث لكَ وثلث لأحدهم وثلث للآخر، وقل لهما أن يتفاهما... وإذا جاءك يا ولدي عاقلٌ ومجنون فخذ نصف عقل العاقل وأعطِه للمجنون وقل لهما أن يتفاهما... فهمت يا شياع؟

- نعم يا أبي، ولكن قل لي بربك يا ماذا أنا فاعل إذا جاءني اثنان عقلاء.

- اطمئن يا ولدي، العقلاء لن يأتوأ إليكَ، لأن العقلاء قادرون على التفاهم وحل مشاكلهم ولا يحتاجون إلى تحكيم من أحد.

عريب العُربة تنزل دمعات ساخنة تسيل على خديه، وأنفاسه تتسارع ولا يقوى على رفع يده، فيقبِّله شياع في جبينه ثلاث قبلات، لكنه يستجمع قواه ويفتح عينيه بوجه ولده قائلاً بصوت متهدج ضعيف:

- شياع ولدي أوصيك بثلاثٍ... الأولى: أن تحافظ على عائلتنا أمهاتك وأخواتك وإخوتك وزوجتك وأولادك وبَنَاتِك وتلتزم بصلة الرحم والدم... والثانية: ان يبقى المضيف قائمًا كما هو وأن تقضي بين الناس بما يدلك عليه عقلك وقلبك

وضميرك بالحق والإنصاف... والثالثة : أن تهتم بالأرض وزراعتها وتنظيم سقيها وأن تُنصف الفلاحين العاملين بها ليبارك فيك وفِي رزقك الله سبحانه تعالى وهو أرحم الراحمين.

ورفع إصبعه قليلاً وتمتم بالشهادة مرتين، ولفظ عريب العُربة أنفاسه، ومات الحكيم رحمه الله.

تصرخ بنات وزوجات عريب العُربة، والجميع يصيحون : مات الفريضة، مات الحكيم، مات صاحب الحظ والبخت.

وتقاطر نساء الحي على بيت عريب العُربة وهن موشحات بالسواد، وتتوافد العشائر من كل مكان رافعةً راياتها فتسمع لها غرغشة[1] وتتعالى أصوات الإطلاقات النارية، ويزدحم الناس أمام المضيف وتُسمع الهوسات والردسة[2] العراقية، وجميعهم يمجدون عريب العُربة ويذكرون مناقبه وحسناته وعدالته ورجاحة عقله.

الهوسات تؤثر تأثيرًا بالغًا بولده شياع الذي يحاول أن يتجلد ولكنه يجهش بالبكاء على أبيه فيلف وجهه بكوفيته خجلاً من الجالسين في المضيف، فيواسيه شيخ مزعل:

---

**(١) غرغشة : صوت الرايات عند هزها بقوة.**

**(٢) الهوسات والردسة : مصطلحات عراقية تردد في الأفراح والمِحن تشبه الدبكة.**

- تجلّد يا ولدي هذه الدنيا وهذه إرادة الله ولا راد لإرادته سبحانه تعالى فهو الذي يحيي وهو الذي يميت، وأبوك شبع من الدنيا وترك أولادًا وبنات يخلفونه، والذي خَلفَ يا ولدي لم يمت، هذه هيَّ الحياة تتجدد وأنتم الخير والبركة، أين اجدادك، أين آبائنا، أين الملوك والخلفاء والأباطرة أين الأنبياء والأولياء يا شياع؟ ادعو لأبيك بالموعظة الحسنة، وترحم على روحه الطاهرة ووزع الصدقات، أشبع الجائع وأسقي العطشان واكسي العريان وارحم المسكين واليتيم يشفع ربك لأبيك ويكون مثواه الجنة إن شاء الله، وأنت يا شياع مقام أبوك تماسك يا ولدي وأمسك مجلس عزاء أبيك وساعدني على استقبال المعزين... شياع ولدي اسمعني: دعنا من البكاء الذي لا ينفعنا ودعنا ننظم الأمور ونوزع الواجبات بيننا نحن أهله ومحبيه لكي نتباهى بين العشائر ولا يكون هناك تقصير في مجلس عزاء أبيك، وأرجوك لا تقترب من نواح النساء فتتأثر وتفقد أعصابك، لا يا ولدي أنت اليوم رجل البيت وكبيرهم وأنا مقام أبيك ولنتعاون جميعًا بأداء واجبنا على أكمل وجه، أمسك مضيف أبيك يا ولدي شياع ونفذ وصيته يرضى عنك الله وعريب العُربة، بارك الله فيك يا شياع.

شياع ابن عريب العُربة الكبير، يؤدي مراسيم مجلس العزاء على روح أبيه لمدة سبعة أيام في مضيف والده على أحسن ما

يكون ، يساعده الجميع ، ويوميًا يحضر شيخ زامل مجلس العزاء ، وكأن الذي مات أخوه ويتقبل التعازي مع شياع وإخوانه وأعمامه، ويساهم مساهمة فعالة بالفاتحة لكونها فاتحة كبيرة ومكلفة جدًا رغم مساهمة الجميع.

بعد أن يُرفع مجلس الفاتحة يجلس شياع مع زوجات أبيه الثلاث ومن ضمنهم أمه، ويقول لهن:

- كلكن أمهاتي، وأنا مكان أبي، لا يضيع حق أحد عندي لا أم ولا أخت ولا أخ، يشهد الله سأكون مثل أبي وأعوض الجميع عنه قدر طاقتي وإمكاناتي، وسوف لا أميز نفسي أو عائلتي عنكم ، كلكم عندي سواسية مثل أسنان المشط، وهذا وعد مني وحق لا إله إلا الله وحق اسم أبي عريب العُربة ، وسأحافظ على هذا الاسم النبيل بشرف وأمانة ولتسير الأمور كما كانت وأحسن.

شيخ زامل الصديق الحميم لعريب العُربة يربت على كتف شياع ويعده خيرًا ويقول:

- اسمع يا شياع أنا مثل أبيك الله يرحمه، وأرجو أن لا ينقطع تواصلنا وتزداد محبتنا وتعاوننا، وكل طلباتك شياع مجابة يا ابن العزيز الغالي.

فيرد عليه شياع:

- عمي والنعم منك أنت بمكانة أبي الله يديمك ويحفظك ويطول عمرك.

شياع إنسان طيب ويحب الخير للناس ، يلتزم بوصية والده الحكيم عريب العُربة ، فيكون منصفًا لأهله وإخوته وأخواته ، ويهتم بزراعة أراضي والده ، ولكنه لا يعطي امتيازات جديدة للفلاحين زيادة على ما قرره أبوه في حياته ، لكي لا يقال إنه أكثر كرمًا وطيبةً من والده.

أعطى شياع أهمية بالغة إلى إدامة مضيف أبيه وتطويره ، واجتهد قدر طاقته وقدرة عقله ان يكون عادلاً في فراضته كما كان أبوه.

شياع يوازن الأمور بالعدل والإنصاف بين نساء أبيه الثلاث ويقسم بينهن بالحق بما يرضي ضميره ووجدانه.

هكذا سارت الأمور على ما يرام ، ولكن الفلاحين مازالوا يطمحون بشياع خيرًا لهم. وهو أحيانًا يفكر بذلك وتراوده أفكار بزيادة حصة الفلاحين ، ولكنه يخاف أن يمدحه الفلاحون علنًا ويشتمون أباه سِرًّا.

هكذا سارت الأمور ، ولكن وبدون سابق إنذار ازداد مستوى المياه في دجلة هذا العام أعلى بكثير من مستوى الماء في العام السابق ، وزارة الري أصدرت بيانًا تحذر فيه المزارعين المراقبة والانتباه وتقوية السدود الترابية وتعليتها قدر الإمكان ،

وسيتم إرسال فرق المساعدة من الجيش والشرطة، لقد فاض دجلة وأغرق أراضٍ شاسعة جدًا، وارتفعت المياه في الأهوار وفِي نهر المشرح وشروحه، وانكسرت بعض السدود الترابية، وغرقت كثير من الأراضي الزراعية القريبة من الأنهار، وكانت الخسائر كبيرة ومدمرة، مما اضطر شياع تعويض الفلاحين عن بعض أضرارهم الوخيمة لإعادة بناء بيوتهم التي جرفها الفيضان، والحد الأدنى من القوت، وتأملوا خيرًا بالموسم القادم.

مرَّ عامٌ ثقيل على الجميع، وشيخ زامل وسعدة يطعمان الناس مما متوفر لديهما من غلال مخازنهم في العمارة أملاً بالتعويض، ولم ينسَ سماري أهله وعشيرته المنكوبة بالفيضان فأرسل لهم العون والمساعدة من البصرة الفيحاء: الملابس والطعام وبعض المواد الانشائية.

الكل مستبشرون خيرًا بشهر نيسان الحصاد ليعوضوا خسائرهم لأن الفيضان غسل الأرض وجلب لها مزيدًا من الطمى فزادت خصوبتها وبالتالي زاد ريعها وإنتاجها.

ولكن الجميع تفاجئوا بموجة من الجراد غير متوقعة أكلت السنابل الزاهية الجميلة وحولت المزارع إلى خراب يباب، خيَّم الحزن على القرى المنكوبة، وشيخ زامل وشياع في حيرة من أمرهما لا يعرفان ماذا يفعلان والنَّاس تتضور من الجوع

والأمراض وتفشي الجهل رغم وجود المدارس الابتدائية المحدودة العدد والإمكانات.

شياع الطيب ابن الطيب يعطي كل ما يملك من مال ومن حبوب مخزونة ومحفوظة بعناية ولم يبقَ لدية أي احتياطي، أما شيخ زامل فما زال له القدرة على العطاء ولكنه شحيح بعطائه.

مرَّت شهور والناس في عوز وفاقة أحدهم يساعد الآخر على لقمة العيش، ولكن ربك رحيم كريم، فكان موسم الأسماك وفيرًا وخيره كثير، والكل توجهوا للصيد لسد رمق عوائلهم، ولم تبخل عليهم الأهوار ولا الأنهار بالرزق الحلال والخير يوزع على الجميع وما زاد عن حاجتهم يبيعونه في مركز الولاية لشراء الشاي والسكر والملابس الضرورية وأحيانًا الطحين.

وهكذا مرَّت الشهور أملاً بالفرج، واستعدوا للموسم القادم، وعمومًا أهل الأهوار لا يجوعون بسبب ما تحويه الأهوار من خير وفير، من السمك والطيور والعلف لحيواناتهم، ولكثرة الجاموس والأبقار والأغنام، وكل شيء عندهم صناعة محلية نادرًا ما يستوردون شيئًا، كل ما يحتاجونه الشاي والسكر والبن والقماش، وهم عندهم وفرة من الطيور والسمك يبيعونها وبفلوسها يشترون حاجاتهم الأساسية هذه.

## (٦)

كان صيفًا قائظًا عام ١٩٥٨ ، وكثر الحديث في المضائف عن سوء الخدمات وإهمال الحكومة لحقوق الفلاحين ، وعدم تقديم المساعدة والعون لهم في الأزمات والشدة حين يتعرضون للفيضان أو للجراد ، وعدم وجود مدرسة إعدادية ولا مستوصف متكامل الخدمات ، وليس هناك جمعيات فلاحية تحميهم من جشع الشيخ والسركال وأتباعهم ، الشيخ يملك كل شيء : الأرض والزرع والضرع وحتى الفلاحين وعوائلهم ، يجلد من يشاء ويطرد من يشاء ويعطي من يشاء ويأخذ كما يشاء ، والحكومة تساعده وتسنده ولا ترد له طلب ، والفلاحون مسحوقون لا يمتلكون من متاع الدنيا شيئًا غير جهودهم وأمراضهم وجهلهم وفقرهم ، والشيخ وأتباعه بخير عميم يلبسون أحسن الملابس ويأكلون أحسن الطعام ما لذَّ وما طاب ويركبون أحسن الزوارق وأحسن الخيول المطهمة ، وما يملكونه من الحلال لا عد له ولا كيل.

في صبيحة ١٤ تموز من هذا العام تجمع الناس في مضيف شيخ مزعل ومضيف عريب العُربة وهم يسمعون بيان رقم واحد والمارشات العسكرية والأغاني الوطنية.

العقيد الركن عبد السلام عارف يذيع على الشعب العراقي من إذاعة بغداد بيان الثورة التي قادها العميد الركن عبد الكريم قاسم قائد الثورة وأخوته الضباط الأحرار ، بعدما تمكنت القطعات العسكرية من احتلال قصر الرحاب وقصر الزهور ووزارة الدفاع والإذاعة وعدد من المرافق الحيوية المهمة والحساسة ، وتم التخلص من الملك والوصي والعائلة الملكية بقتلهم ، ولكن هرب رئيس الوزراء نوري السعيد وعدد من الوزراء المهمين ، فكان لابد من الاستعانة بالشعب لإلقاء القبض عليهم وقتلهم أو تسليمهم لسلطة الثورة ، ولهذا كان من الضروري إذاعة بيان الثورة الاول لتوعية الشعب وحثه للخروج إلى الشوارع لدعم الثورة وتأييدها باعتبارها ثورة شعبية وليس انقلابًا عسكريًا.

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**أيها الشعب الكريم**

**بعد الاتكال على الله وبمؤازرة المخلصين من أبناء الشعب والقوات الوطنية المسلحة ، أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصّبها الاستعمار لحكم الشعب والتلاعب بمقدراته وفي سبيل المنافع الشخصية. إن الجيش منكم وإليكم ، وقد قام بما تريدون وأزال الطبقة الباغية التي استهترت بحقوق الشعب، فما عليكم إلا أن تؤازروه ، وأعلموا أن الظفر لا يتم إلا بترصينه**

والمحافظة عليه من مؤامرات الاستعمار وأذنابه، وعليه فإننا نوجه إليكم نداءنا للقيام بإخبار السلطات عن كل مفسد ومسيء وخائن لاستئصاله. ونطلب منكم أن تكونوا يدًا واحدة للقضاء على هؤلاء والتخلص من شرهم.

أيها المواطنون، إننا في الوقت الذي فيه نكبر فيكم الروح الوطنية الوثابة والأعمال المجيدة، ندعوكم إلى الإخلاد والسكينة والتمسك بالنظام والتعاون على العمل المثمر في سبيل مصلحة الوطن.

أيها الشعب، لقد أقسمنا أن نبذل دماءنا بكل عزيز علينا في سبيلكم، فكونوا على ثقة واطمئنان بأننا سنواصل العمل من أجلكم وأن الحكم يجب أن يعهد إلى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه وهذا لا يتم إلا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة وترتبط برباط الأخوة مع الدول العربية والإسلامية وتعمل بمبادئ الأمم المتحدة وتلتزم بالعهود والمواثيق وفق مصلحة الوطن وبقرارات مؤتمر باندونغ. وعليه فإن الحكومة الوطنية تسمى منذ الآن (الجمهورية العراقية). وتلبية لرغبة الشعب فقد عهدنا رئاستها بصورة وقتية إلى مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ريثما يتم استفتاء الشعب لانتخاب الرئيس. فالله نسأل أن يوفقنا في أعمالنا لخدمة وطننا العزيز إنه سميع مجيب.

العقيد الركن عبد السلام محمد عارف

عن القائد العام للقوات المسلحة الوطنية

هبَّ الشعب العراقي بكل أطيافه من الشمال إلى الجنوب حاملاً راية الثورة، نجحت الثورة، وبعد أيام قليلة توضحت، وشكل مجلس السيادة وأعلن أن قائد الثورة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء القائد العام للقوات المسلحة. وتم تشكيل محكمة الثورة برئاسة المهداوي لمحاكمة أركان العهد الملكي وأمور كثيرة لا مجال للخوض فيها.

والذي يهمنا ماذا حصل في المشرح...

فرح غامر لدى الفلاحين ، النساء تهلهل والرجال تهوس هوسات شعبية والشعراء يصدحون، والكل أصبحوا سياسيين والجميع أصبحوا وطنيين ينادون بسقوط الملكية التي فعلاً سقطت، الكل ينتظرون الأخبار وسماع البيانات، حتى أذيع بيان الإصلاح الزراعي الذي يهمهم كثيرًا والذي بموجبه تم توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين حين رُفع شعار (الأرض لمن يزرعها).

تمَّ مصادرة أراضي شيخ مزعل وخصصوا له مائة دونم فقط من كافة الأراضي التي كان يملكها، فقرر الانتقال إلى مركز محافظة العمارة لإدارة أملاكه وتجارة الحبوب... بعدها بشهور صفَّى أمواله وهاجر إلى بغداد وأشترى بيتًا كبيرًا في الكرادة وعمل في شراء وبيع العقارات عن طريق عدد من مكاتب بيع العقارات، وفتح له محل جملة لتجارة الحبوب في الشورجة.

أما شياع فخُصص له ولعائلة عريب العُربة ستون دونم فقط من مجمل الأراضي التي كان يملكها عريب العُربة، وزَّعها شياع على أخوته وأخواته وفق الشريعة بالعدل والإنصاف وأصبح حالهم كحال الفلاحين الذين شُمِلوا بقانون الإصلاح الزراعي.

شياع حسب حساباته أنه لا يستطيع وهذه الحالة أن يلتزم بوصايا أبيه، ولهذا غُلقَ المضيف، والأرض ضاعت وليس هناك من يزرع لهم الستين دونم، ولهذا وزعها ليتحمل كل واحد مسؤولية نفسه. شياع في حيرة من أمره ماذا يفعل وكل شيء ضاع، ولكن ليحافظ على عائلته على الأقل وليوفر لهم أسباب المعيشة يفكر طويلاً حتى أضناه التفكير، وفِي ساعة رحمن يتذكر صديقه المخلص سماري، فيحضر حقيبة ملابسه مع هدية مناسبة من الخريط [١] وسمك مجفف لعمل أكلة المسموطة المشهورة عند أهل الأهوار، ودلة قهوة صغيرة من دلال والده التي كان يعتز بها، يقرر أن يكون سفره يوم الخميس القادم لأن لديه عنوان محل سماري في خمس ميل في السوق مقابل محطة البنزين وبيت سماري قريب من محلهم وسماري أصبح رجلاً معروفًا في المحلة.

---

**(١) الخريط : مادة صفراء من خيرات الهور.**

شياع يحضر معدات السفر ويودع عائلته ويقول : أيام قليلة وأعود ، أرجو الاهتمام بالأطفال وإرسالهم يوميًا للمدرسة لضمان مستقبلهم.

يسافر إلى مركز العمارة، ومن هناك يركب سيارة أخرى إلى البصرة، فيصل العشار مركز مدينة البصرة، بعدها إلى خمس ميل بواسطة تكسي أجرة الذي يوصله إلى باب دكان سماري.

شياع يندهش من سعة دكان سماري ومن البضاعة المكدسة على طرفي باب المحل ومن كثرة رفوف المحل وأنواع البضاعة فوقها، بلا حسد، يضع حاجاته بباب المحل ويدخل، ولكن سماري مشغول مع الزبائن وفِي حساب الفلوس، فيقول: السلام عليكم، فيرد عليه الجميع: وعليكم السلام. سماري ينتبه أن الصوت ليس غريبًا عليه فيرفع رأسه ويرى شياع فينهض ويأخذه بالأحضان...

- أخي شياع، يا أهلاً وَيَا وسهلاً، حيَّاك الله.

ينادي سماري على ولده الكبير القادم توًا من المدرسة ويسلمه عهدة المحل ويأخذ ضيفه ويذهب به إلى البيت القريب من المحل ، فتستقبله عائلة سماري استقبالاً يليق بهذا الضيف العزيز الغالي.

شياع يستغرب من سعة بيت سماري ونظافته وحسن تنظيمه ومن كراسي الراحة الفخمة في الصالة ، ومن أنواع السجاد

الكاشاني الإيراني الفاخر الغالي الثمن... يذهب إلى الحمام فيغسل يديه ووجهه من تعب السفر وينبهر بسعة الحمام وجمال رونقه وأنواع السيراميك الملون ، يحاكي نفسه أن سماري تطور كثيرًا خلال حفنة السنين هذه من فلاح بسيط لا يملك شيئًا إلى تاجر معروف صاحب مال وحلال واسم لامع.

يتناولان الغداء ويتحدثان ساعة من الزمن ثم ينامان سويعة ويقرران الخروج إلى مركز المدينة للفسحة... الخميس والجمعة وسماري بسيارته الخاصة يفسِّح شياع في مدينة البصرة طولاً وعرضًا في العشار والمعقل والبصرة القديمة والزبير وأبو الخصيب، ويأكلان حلاوة نهر خوز المشهورة، وشط العرب والكورنيش وشارع الوطني وجزيرة السندباد ، وأسواق البصرة سوق المغائز وسوق الهنود وشارع الصيادلة ومعالم كثيرة تشتهر بها البصرة ، ويندهش شياع من حجم البواخر العملاقة الراسية في شط العرب تنتظر دورها في التحميل أو التفريغ.

يجلسان في كازينو ١٤تموز على الكورنيش على ضفاف شط العرب ويتناولا كوبين من القهوة التي لا تعجب شياع كثيرًا بسبب رداءة طعمها مقارنة بقهوة مضيف أبيه. ومع مغيب الشمس يعودان إلى البيت ، وهكذا يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة و بعد تناول الغداء يقومان بنزهة نهرية في شط العرب تبدأ من العشار باتجاه مصب شط العرب في الخليج العربي

مسافة عدة كيلو مترات قليلة ، فيعجب شياع بضآلة حجم زوارقهم في المشرح وصغر حجم المركب الجالسين فيه للفسحة الذي يشق عباب الماء مقارنةً بالبواخر العملاقة خاصة عندما يتقربون من إحداها ، وعندما صرخت إحدى البواخر بزمارتها العالية كاد شياع من فرط خوفه يقفز في الماء.

يوم السبت يذهبان من الصباح إلى المحل، وسماري يطلب من شياع أن يعمل معه براتب قدره ثلاثون دينار شهريًا ، بعد أن شكى شياع إلى سماري وضعهم المالي المتردي بعد الثورة وما آلت إليه الأمور ، فوافق شياع على الفور وخاصة بعد أن علم أن أحسن عامل نشط عند سماري يتقاضى خمسة عشر دينار فقط... سماري يخصص إحدى الدور التي يملكها والقريبة من المحل إلى شياع ليسكنها ، ويجهزها بأثاث بسيط قسم من داره العامرة وقسم يتم شراؤه من السوق.

كل يوم شياع يتغدى في المحل مع سماري، وفِي الليل بعد غلق المحل يتسامران إما في المقهى القريب أو في بيت سماري ، شياع يحب أن يعمل القهوة العربية بيديه وفِي دلة القهوة التي أصبحت ملك سماري ، فهو الذي يقلي حبات القهوة بالمقلاة ويطحنها بالهاون الحجري ثم ُيهدَرها في المنقلة على جمر الفحم الكراجي المستورد من بومبي ويرشف منها ثلاث فناجين فترد له الروح ويتنفس الصعداء وينتشي، وهكذا تعود سماري أن يشاركه شُرب القهوة كل يوم.

تمر الأيام والشهور وشياع يعمل بجد ومثابرة في المحل ، وسماري أصبح يعتمد عليه كثيرًا ، ولهذا أحيانًا يذهب سماري إلى محل الفيصلية التي تغير اسمها إلى الجمهورية عند قيام النظام الجمهوري في العراق بعد ثورة ١٤ تموز المجيدة ليطلع على المبيعات والأرباح ويوجه أولاد عمه.

تمر أكثر من أربعة سنوات والأحوال من حال إلى حال أحسن، وشياع تزداد مدخراته من المال إذ وضع ميزانية لنفسه بمساعدة سماري ، يبعث عشرة دنانير لعائلته في المشرح لغرض المعيشة وفِي كل عيد يشتري لهم كسوة العيد والشاي والسكر والقهوة وبعض الحاجات الضرورية مثل الأقلام والدفاتر وملابس الأولاد ، وحدَّد مصرفه بخمسة عشر دينارًا أكل ومشرب ، والباقي يوفره في دفتر البريد القريب منهم... كذلك سماري لا يقصر معه فعندما يبيع بيتًا ويحقق أرباحًا يعطي شيئًا من الربح إلى شياع لكونه يتابع معاملة تسجيل البيت وشراء أملاك جديدة إلى سماري من باب التعويض.

شياع يملك مبلغًا من المال، فيشجعه سماري على شراء أرض وبنائها على حسابه الخاص ، وفعلاً خلال أربعة شهور من العمل المتواصل يكمل بيت شياع ويسكنه ، لقد أصبح لشياع بيت من أربعة غرف نوم وصالة وملحقاته.

يصحو الناس على صوت بيان قيام انقلاب عسكري صبيحة ١٤ رمضان عام ١٩٦٣ قام بها مجموعة من العسكر بالاشتراك مع حزب البعث وعدد من القوميين العرب، ويُقتل الزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه، ويستلم رئاسة الحكومة العقيد عبد السلام عارف بعد أن اختلف مع عبد الكريم قاسم.

يتلو ذلك سلسلة من الانقلابات ، ويُقتل عبد السلام عارف بحادث طائرة سمتية في محافظة البصرة في منطقة الدير ، وتؤول الأمور إلى أخيه عبد الرحمن عارف ، ويتم تعيين الحياني محافظًا للبصرة الذي يخطط لبناء محلة الحيانية الواسعة للكادحين الفقراء الذين لا يمتلكون دارًا في عموم العراق.

سماري يقترح على شياع أن يفتحوا محلاً جديدًا للمواد الصحية وأسكلة للمواد الانشائية ويشترون عددًا من قطع الأراضي لمن يبيعهم كاملاً الأرض أو نصفها ليبني النصف الآخر بالفلوس التي تدفع له، فيوافق شياع على المناصفة، وينتقل شياع إلى الحيانية لبناء المحل وإعداده وتهيئة السكلة وبناء دار سكن بسيطة له قرب المحل ، وفِي غضون ثلاثة إلى أربعة شهور تجهز الأمور ويستقر الحال ، فيستفاد شياع من حركة البناء الواسعة للأهالي وباعتباره المحل الوحيد المجهز للمواد بالمحلة.

يفتح الله أبواب الرزق على شياع على مصراعيه بحيث يحقق محل الحيانية مبيعات وأرباحًا أضعاف محل خمس ميل رغم خبرة سماري العالية ، يواصل شياع العمل ومعه عدد من المساعدين الأمناء ليل نهار ويوسع المحل والسكلة أكثر من مرة ، وبين الحين والآخر يبني هو وسماري مجموعة من البيوت للبيع والشراء والإيجار... وهكذا تتوسع أبواب رزقهم ويصبح شياع اسمًا معروفًا في المحلة والسوق التجاري.

يقترح شياع على سماري فتح مخازن للحبوب لتجهيز تجار الجملة والمفرد مستفيدين من وفرة الحبوب في المشرح وعلاقتهم الممتازة مع الفلاحين وكذلك علاقتهم مع شيخ مزعل في بغداد الذي أصبح من تجار الحبوب في سوق الشورجة الكبير وسط بغداد.

يتم بناء أربعة مخازن كبيرة تدار من قبل صديق حميم لهما اسمه سيد صادق وهو اسم على مسمى.

تتطور الأمور إلى الأحسن ويضاعف شياع المبلغ المرسل لعائلته في المشرح من عشرة دنانير إلى عشرين دينار ، وكان هذا مبلغًا مجزيًا في ذلك الوقت.

شياع أصبح صاحب محل كبير للمواد الصحية ، وصاحب سكلة لمواد البناء ، وأربعة مخازن كبيرة لبيع الحبوب ، وقطع أراضي كثيرة ، وبيت في الحيانية ، وبيت في خمس ميل...

وبعد أن تستقر الأمور يفكّر جديًا في استدعاء عائلته للعيش معه ليتمتعوا بالماء الصالح للشُرب وبالخدمات البلدية والمواصلات والمدارس الحديثة والشوارع المبلطة ، والأهم الكهرباء والتلفيزيون الذي يعمل على الكويت وإيران وبغداد ، إنها حالة متطورة كثيرًا عن الريف، وخاصةً أرياف الجنوب.

في العطلة الصيفية نقل شياع عائلته ؛ زوجته وأولاده وبناته إلى البصرة ، وسكنوا في بيتهم في خمس ميل قُرب بيت سماري ، وهو يذهب يوميًا من الصباح الباكر إلى محله في الحيانية، ولا يعود إلا عند المساء، ما عدا يوم الجمعة.

(٧)

"سعاد" ابنة شياع الكبيرة ؛ طالبة شاطرة في الإعدادية ، في الصف الثالث المتوسط ، ترغب في دخول دار المعلمات لتتخرج معلمة، هذا طموحها وطموح أهلها.

مراقب البلدية واسمه "فؤاد" يراقب يوميًا الأمور البلدية في محلة خمس ميل، وهناك مرحبة بينه وبين شياع، وفي الوقت نفسه بينهما مشكلة، لأن شياع يكدِّس بضاعة أمام المحل، وهذا ممنوع، وكذلك السكلة يتطاير منها الرمل والجص والإسمنت وتراب الطابوق، مما يشوه منظر الشارع، ولكنه أحيانًا يغض النظر مقابل دريهمات قليلة يدسها شياع بين الحين والحين في جيبه.

فؤاد يضع عينه على بنت شياع المراهقة الشابة سعاد عندما تذهب وتعود من المدرسة، وأحيانًا كثيرة يجلس في المقهى الذي على طريق بيت شياع، ينتظر ذهابها وإيابها، وهو مفتون برشاقة جسمها وجمال وجهها وطول شعرها وسعة عينيها وسُمرتها الخفيفة.

تشعر سعاد أن هناك عيون تراقبها وتتابعها وتنظر لها بعد أن تضع حقيبة كُتبها على كتفها الأيسر ، فترى فؤاد ذلك الشاب الأنيق الجميل الممشوق الطول حلو الملامح.

عندما تطالع سعاد دروسها ؛ تفكّر بفؤاد فتى أحلامها ، وتحاول التخلص من عُقدة الكبت التي ورثتها من عادات الريف ، والتي ما زالت مسيطرة بقوة على العائلة ، كل شي عيب.

بدأ شبح فؤاد يطاردها ويقلق نومها ويؤثر على دراستها ، ولكنها نجحت بتفوق وقُبلت في دار المعلمات في العشار ، وأصبح لزامًا عليها أن تركب الباص يوميًا ذهابًا وإيابًا من خمس ميل إلى العشار لدار المعلمات ، وفؤاد يعرف مواعيدها فيتعمد أحيانًا الركوب بنفس الباص ، وسنحت له الفرصة أن يجلس بجانبها ولامس زنده زندها ، مع حرارة صيف البصرة ، فسرت رعشة في جسدها ، وحاولت أن تغيِّر مكانها ، ولكنها استحسنت هذا الشعور وهذا التيار الذي هزَّ كيانها.

سعاد تبدأ الاهتمام بنفسها ؛ بلبسها ، بشعرها ، تنظم حواجبها عند جارتهم أم راشد والتي تحف وجهها بالخيط ، وتتعلم أن تضع بعض المساحيق الخفيفة ، واشترت قلم أحمر شفاه بواسطة إحدى زميلاتها في الدار ، تضع منه شيئًا خفيفًا في حمامات الدار ، وعند العودة تمسحه.

في شهر حزيران والحرارة تجاوزت الأربعين وهي تركب الباص فرحة بعد استلام نتيجة النجاح وتحديد موعد التخرج من الدار لتصبح معلمة مؤهلة لتعليم النشء تركب الباص في طريق العودة ويركب بجانبها فؤاد حبيب القلب ، ويتبادلان

النظرات والابتسامات وكلمات قليله همسًا ، ويعرف اسمها وتعرف اسمه ، وقبل أن ينزل قرب المقهى يمسح بيده اليمين على فخذها من بدايته حتى الركبة العارية وينزل ، تهتز سعاد وتسري قشعريرة في جسدها وكأنها تطير ويكاد قلبها يقفز من صدرها ، وتتسارع دقات قلبها وتحس أن نهديها يكادان يقطعان أزار القميص الأبيض فتضع يديها على صدرها خوفًا من ذلك ، وما هي إلا لحظات ويقف الباص قرب الدار فتنزل وهي تتلفت يمينًا وشمالاً ، ويداها اليسرى حملت حقيبتها واليمنى مازالت على صدرها لتهدأ صدرها من الانفجار وتقطيع الأزرار.

دخلت الدار ورمت حقيبتها ودخلت الحمام وخلعت ملابسها وفتحت دوش الماء وهي تدلك نهديها وتمسح صدرها وخصرها والمناطق الحساسة من جسمها مع آهات وتنهدات تسمعها وسمعتها أمها ، فنادت عليها:

- سعاد ، خير إن شاء الله؟

فردَّت عليها:

- أبشركِ أني تخرجت من الدار وأصبحتُ معلمة.

تهلهل الأم وينتابها فرح غامر ، لأول مرة في العائلة أحد أفرادها يصبح معلمًا...

- ياه ، كنّا أين وأصبحنا أين ، ألف الحمد لله... زيد (وهذا اسم ابنها الصغير) أركض بشِّر أبيك بتخرج سعاد ، سعاد أصبحت معلمة، يا رحمة الله الواسعة.

دقائق وشياع في البيت يحضن ابنته سعاد ويقبلها ويعطيها هدية النجاح خمسة دنانير بحالها، ويقول: اليوم فرح، اليوم سآخذكم للفسحة في كورنيش شط العرب ونتعشى في كازينو العائلة، حيث الهواء العليل والعوائل الراقية والأنوار المشعة والبواخر العملاقة وطيور النورس وغابات النخيل على الضفة الأخرى من الشط تمتد طولاً وعرضًا على مدّ البصر ، والأطفال يتجمعون لمشاهدة القرود المستوردة من الهند والمدربة والأطفال يعطونها بعض الأطعمة ويلعبون معها بحذر.

شياع يطلب للجميع على عددهم شراب جديد اسمه شابي طيب الطعم والمذاق، يستلذ الجميع بطعمه، ثم يوصي بوجبة عشاء من سمك الزبيدي و الروبيان المشهورة به البصرة ، بعدها يشربون الشاي ويتناولون الحلويات ويعودون إلى بيتهم سعداء فرحين، وسعاد فكرها شارد بعيدًا.

يعودون للدار فرحين مبتهجين، وسعاد مازالت في عالم آخر، جافاها النوم وهي ترى صورة فؤاد مرة على ستارة الشباك ومرةً في مرآة دولاب الملابس تتصور أنه يكملها وتكلمه، فتحت ستائر الشباك الوحيد في الغرفة المطل على الشارع

الفرعي لعلها ترى فؤاد حقيقة لعلها تستطيع لمس يديه وهي تدور في غرفتها، وأحيانًا ترمي نفسها على السرير وتنظر من خلال الشباك إلى القمر وهو بدر وتقول مع نفسها : ربي وخالقي بك أستغيث أن تجعل أيامنا مضيئة مثل هذا البدر وجميلة مثل هذا القمر البديع سبحان الخالق المبدع... وتمني النفس بآمال تتمناها وتعشقها وتأمل أن تتحقق لها في القادم من الأيام... تكلّم نفسها : إني محظوظة أحسن من بنات أعمامي وأخوالي وحتى أحسن من بنات شيخ مزعل ، ماذا أريد من الدنيا معلمة على سن ورمح والكل يحبني ويتمنى رضائي ، وعندي حبيب شاب جميل وموظف حكومي أنيق رشيق مثقف، ماذا لو بقينا في المشرح ولّم نهاجر إلى البصرة ، حتمًا سيزوجني أبي أحد أولاد عمي من الفلاحين وأعيش كما تعيش بنات أعمامي طول النهار في خدمة العائلة والضيوف، شكرًا لله على كل شيء، وشكرًا لأبي الذكي المتطور، وشكرًا للعم سماري صديق والدي الذي أخذ بيد أبي وعلمه وأقنعة أن نعيش معه في المدينة... انتهت العطلة الصيفية وجاء منتصف أيلول وغدًا السبت يبدأ الدوام في المدارس، وأنا جهزت نفسي لهذا اليوم المبارك الجميل، وغدًا أتعرف بالمعلمات اللواتي سبقني بالخبرة وبالمديرة والطالبات سأكون في بادئ الأمر شديدة مع الطالبات وشيئًا فشيئًا أتحول إلى الطيبة والدعة، يجب أن اتبع أسلوب المعلمة نجية الشخصية القوية المحبوبة التي كنّا نهابها

ونحترمها ونستمع إلى كلامها بكل حواسنا، ويجب أن لا أكون مثل المعلمة نجلاء التي كانت تخلط الجد بالهزل حتى أصبح لعدد من الطالبات ميانة معها يضحكن معها وتتحول الحصة إلى هرج ومرج مما أجبر مديرة المدرسة أن توبخها أمام الطالبات وتنذرها وتوعدها بتحويلها إلى التحقيق إذا لم تستطع ضبط الفصل.

أفكار كثيرة وأمنيات كبيرة وهي تركب الباص من أمام القهوة التي يجلس بها كل يوم فؤاد، وبطرف عينها وهي جالسة في الباص لمحت فؤاد في المقهى في الركن الذي تعود الجلوس فيه وهو يرشف إستكان الشاي المذهب، أومأت له خفية مع ابتسامة، حاول الإسراع لركوب الباص، لكن الباص تحرك، فعاد مهمومًا إلى المقهى وهو يلوم نفسه لماذا تردد وضيَّع الوقت فضاعت فرصة شم عطر حبيبته.

سعاد في مدرسة الحكمة الابتدائية النموذجية للبنات تقدم نفسها للمديرة:

- أنا ست سعاد شياع عريب العُربة المعلمة الجديدة.

- أهلاً وسهلاً تفضلي بالجلوس، أرجو أن تحضري مع المعلمة القديرة ست ماري عدة محاضرات لتتعلمي منها أسلوب التعليم وكيفية التعامل مع الطالبات وملأ خطة الدرس، أنتِ

بحاجة للتدريب يا سعاد، والآن لأعرفك بزميلاتك المعلمات وخاصة بالست ماري... لنذهب إلى غرفة المعلمات.

- صباح الخير.

- أهلاً بالست المديرة... بصوت واحد.

- أخواتي هذه ست سعاد معلمة جديدة نسبت لمدرستنا... ست سعاد سلمي على أخواتك المعلمات.

بعدها طلبت من المعاونة أن تدرج ست سعاد في جدول الحصص بعد أخذ رأي ست ماري بانتهاء فترة التدريب.

سعاد وسط المعلمات وهن مستغربات كيف تم تنسيبها إلى مدرسة نموذجية بعد تخرجها مباشرة دون الخدمة بالقرى والأرياف لمدة سنتين على الأقل، فردت أحداهن همسًا: أكيد واسطة قوية أو بنت مسؤول واصل بالدولة.

ست ماري أجلستها بجانبها وأخذت تشرح لها خطة الدرس وقالت لها:

- أنا أختك الكبيرة أيضًا قبل عشرين سنة في بداية تعييني معلمة تدربت على يد ست فاضلة مازلت أكنُّ لها المحبة والاحترام.

سعاد معلمة مجدة متابعة تتعلم بسرعة، وست ماري مدربتها فرحانة بهذه الكفاءة الجديدة، وبعد شهر من التدريب ترفع

تقريرها إلى المديرة بتقييم إيجابي يشجع المديرة على الإيعاز إلى المعاونة باعتماد ست سعاد في جدول الدروس أصوليًا.

اليوم خميس رأس شهر تشرين الأول موعد استلام الراتب ، سعاد لأول مرة في حياتها تستلم راتب من الدولة وهي في قمة السعادة تعد الدقائق للعودة للبيت لتبشر أمها ، في جلسة عائلية ليلة الجمعة تقترح سعاد على أهلها دعوة عشاء على حسابها في جزيرة السندباد فيوافق الجميع ، وهكذا كان حفلة عشاء متميزة ، سعاد صعقت ولكنها انتشت عندما شاهدت فؤاد جالس في الركن الجنوبي الأيسر من الكازينو وهو يتابع كل شاردة وكل واردة ، تلعثمت ثم تماسكت هل تدير كرسيها باتجاه الشمال كي لا تراه ، وكيف تعطي ظهرها لحبيب القلب وهناك فرصة لتشبع من رؤيته في الحقيقة بعد أن أضناها الخيال ، أمها اللماحة تلاحظ إشارات وجه ابنتها فتهمس بأذنها:

- هل تعرفين يا سعاد هذا الشاب ؟

فترد دون تردد:

- كلا لا أعرفه ، ولكنه وقح وقليل الأدب.

- الظاهر هو معجب بكِ.

- لا أعرف ماذا تقولين.

-المهم دعونا نعود للبيت الوقت تأخر وغدًا عندكم دوام.

شياع جالس على جنب يشرب الأرجيلة التي يعشقها ، لا يريد أن يعرف ما يدور حوله ، المهم سعاد تدفع الحساب وتعطي ما تبقى من الراتب لأمها لتحتفظ به كأمانة لها.

ينهض الجميع ويتجهون إلى سيارتهم القريبة للعودة إلى البيت.

مرَّ شهر بحاله وفؤاد لا يعرف كيف يلتقي بسعاد لأن والدها في كل صباح يوصلها إلى باب المدرسة وعند الظهيرة في تمام الساعة الثانية عشر يذهب بسيارته للمدرسة ليعيدها للبيت ويتناول الغداء مع عائلته وينام ساعة من الزمن قبل العودة للمحل لكونه نظم أمور المحل ، الظاهر أن الأم خافت على ابنتها فطلبت من الأب أن يعتني ببنته لأنها في مرحلة النضوج وتخاف عليها من أولاد الحرام.

سعاد في حيرة من أمرها وفؤاد أصبح لا يراها إلا ثوانٍ معدودة وهي جالسة بجوار أبيها في السيارة في الذهاب والإياب من والى المدرسة ، كيف السبيل إلى اللقاء بها ؟ الأمر في غاية التعقيد.

بطريق الصدفة يعرف ان ابنة أخته طالبة في مدرسة الحكمة في الصف الرابع الابتدائي ، فيسألها :

- أنتِ تعرفين ست سعاد.

- نعم أعرفها ، لكنها لا تدرس الصف الرابع ، انها تدرس الصف الثاني والثالث.

- طيب لو أعطيتك ورقة هل تسلمينها إلى ست سعاد؟
- لا أعرف، يجب أن أسأل أمي أولاً.
- لا أرجوك دخيلك لا تقولي لأحد وسأشتري لكِ هدية جميلة.
- طيب أريد حذاء رياضة جديد.
- تدللي حاضر وبكل ممنونية.

في الصباح يطلب من بنت أخته أن تمر من أمام المقهى ليسلمها الورقة، وفعلاً سلمها ورقة صغيرة مرسوم عليها وردة داخل قلب بلون وردي.

الطفلة للمعلّمة سعاد:

- ست، هذه ورقة من أمي لكِ.

فتناولتها وفتحتها على الفور، ارتبكت وتلعثمت وأحمر وجهها وهي تقرأ رسالة فؤاد:

**حبيبتي سعاد، روحي فداكِ، إني أموت، أرجوكِ أنقذيني، لا أعرف النوم ولا الراحة، إني مدمن على رؤيتكِ، أكاد أجنَّ عندما لا أراكِ، أريد لقاءكِ، أرجوكِ انقذيني...**

**حبيبك فؤاد**

سعاد في حيرة من أمرها، إنها مرتبكة، جلست في غرفة المعلمات ووضعت رأسها بين يديها واستغرقت في تفكير عميق وكأن عقارب الزمن توقفت، بماذا ترد على فؤاد؟ لا

يمكنها مقابلته لأنها تخاف من نتائج المقابلة ، ماذا لو عرف أبوها ذلك ، سيذبحها حتمًا ، إنه رجل عشائري ، الشرف أغلى شيء ، كل شيء يهون إلا الشرف. إنها فتاة ريفية تحكمها تقاليد وعادات الريف ، وأمها فرضت عليها لبْس العباءة والتنورة الطويلة والبلوز الطويل الأكمام المقفول الصدر ، ولون ملابسها لا يتعدى الأسود والأزرق والبُني، ولا تستخدم المساحيق إلا ما ندر وألوان خفيفة جدًا في المدرسة، وتمسحها بمنديلها قبل أن تعود للبيت لكي لا تلاحظها أمها، بينما فتيات مدينة البصرة في ذلك الوقت يبحثن عن الموديلات الحديثة باعتبار البصرة ميناء العراق الذي تدخل منه الموديلات الحديثة، وكان زمن الميني جيب والميكرو جيب قد بدأ يدخل البصرة من أوسع الأبواب ، وبنات المدينة بدأنَّ يقلدنَّ هذه الموديلات الجديدة ويلبسن التنورات القصيرة ويكشفن عن سيقانهن الجميلة ولسان حالهن يقول : كل جديد وله رنة ، وست ماري رغم أنها اقتربت من الأربعين عام تلبس ملابس قصيرة نوعًا ما وبلوز مزركش جميل الألوان، إنها أنيقة تنسق ملابسها وتنسق ألوانها، لماذا لا تكون هيَّ مثل الست ماري أو مثل الست سنابل أو مثل الست ندى مثلاً وهنَّ بنات عوائل محترمة، ماري أبوها موظف في الموانئ، وسنابل أبوها مدرس في إعدادية البنين، وندى أبوها مدير بلدية خمس ميل التي يعمل بها فؤاد موظفًا بسيطًا بصفة مراقب بلدية ، أبوها لا يستقبل الضيوف إلا نادرًا وغرفة

الضيوف معزولة عن البيت، وعندما يكون عندنا ضيف غريب غير مسموح لنا نحن النساء من الاقتراب من غرفة الضيوف ولا حتى معرفة من الضيف القادم، قيود لا تختلف عن القيود التي تعلمناها في الريف واعتدنا عليها وأصبحت جزءًا من حياتنا.

اختلت سعاد مع نفسها في غرفتها وهي تقلب الأمور وتعيد قراءة قصاصة ورقة فؤاد مرات ومرات، دون أن تهتدي إلى رأي...

- رباه ماذا أفعل؟ رباه ساعدني أنت المعين.

كان اليوم الخميس وغدًا الجمعة، سعاد تتوسل لأمها أن تقنع أباها ان يأخذهم غدًا في سفرة سياحية إلى أبو الخصيب حيث الشوارع الملتوية وباسقات النخيل والأنهار الجارية والبساتين الغناء وضفاف شط العرب، لقضاء سويعات في مزرعة صديقه سماري قرب نهر جيكور حيث يمكنهم مشاهدة بيت الشاعر الكبير بدر شاكر السياب وشراء حلاوة خوز المشهورة في البصرة بحلاوتها وطعمها المتميز.

وافق الأب، واجتهدت الأم وسعاد في إعداد طعام ومعدات السفرة... انطلقوا جميعًا فرحين صباح الجمعة بعد الإفطار...

ما أجمل منعطفات أبي الخصيب وجمال أنهارها وبساتينها وكثرة جسورها الصغيرة ومنعطفاتها الحادة التي من

الضروري أن يكون السائق يقظًا وماهرًا وحذرًا من السيارات القادمة من عكس الاتجاه لضيق الطريق وتعرجه وقصر مدى الرؤية.

وصلوا بستان سماري واستقبلهم الفلاح الحارس وعائلته وخبزوا لهم خبز التنور وسقفوا السمك، وشياع يصيح بأعلى صوته: والله كل شيء متوفر عندنا.

تناولوا الغداء بعد أن سرحوا ومرحوا ولعب الأطفال، بعدها أعدت لهم عائلة الفلاح الشاي وسلة من رطب البرحي المتميز بطعمه الفاخر.

سعاد تلعب مع أخوتها في البستان، وعندما حاولت قفز إحدى السواقي الضيقة عثرت فالتوى كاحلها وبدأت تتألم، ولم يتوقف الألم رغم الماء البارد والثلج الذي وضعوه على مكان الألم، فاضطروا للعودة للبيت على عجل.

ذهب شياع إلى المجبرجي المشهور في المنطقة، رجل كبير السن خبير في تجبير الكسور والالتواءات في المفاصل وله سمعة طيبة بين الناس.

سعاد تلبس بنطلون البيجامة ودشداشة طويلة وتلف رأسها وتلبس عباءتها وتنتظر، يعود أبوها ومعه حجي راضي المجبرجي، وتمسكها أمها وأختها، ويسحب حجي راضي رجلها بقوة، فتصرخ سعاد وتهدئها أمها، ثم يحرك قدمها برفق

شمال يمين ويدهنها بزيت أحضره معه ويربطها برباط طبي من عنده ويقول لها : بالشفاء ، ثلاثة أيام راحة تامة ، بعدها سأزورك إن شاء الله.

بعد ساعة يهدأ الألم ، وتنام سعاد بعد أن تأخذ قرصين من البراستيمول المهدأ للألم.

في صباح يوم السبت الأب والأم يأخذان سعاد للمستوصف الصحي القريب ويفحص قدمها الطبيب ويأخذ لها أشعة ويقول لهم : لا يوجد كسر ولا فطر ، إنه مجرد التواء حاد ، تحتاج راحة أسبوع، وهذه بعض المسكنات، وعندها العافية.

يعودون أدراجهم إلى البيت وفؤاد يراقب الأمور من المقهى مستغربًا ما الأمر ، ينتظر بفارغ الصبر الظهيرة عودة بنت أخته من المدرسة ليسألها ، ها هيَّ بنت أخته تمر من أمام المقهى عائدة للبيت، فيجري باتجاهها...

- نور ما الأمر ؟ هل سلمتِ الورقة إلى ست سعاد؟

- نعم خالو ، سلمتها.

- وهل أعطتكِ ورقة؟

- كلا خالو.

- طيب هل رأيتِ ست سعاد اليوم في المدرسة؟

- كلا خالو ، لا أعلم ، ولكن قل لي أين حذاء الرياضة الذي وعدتني به؟

أجابها:

- حاضر حاضر، صبرك عليَّ يا نور.

أم سعاد تعتني بابنتها وتجلب لها الطعام لغرفتها، وأختها الصغيرة تنام معها وفِي خدمتها، سعاد تتحسن صحتها وتستطيع الذهاب إلى الحمام متكئة على كتف أختها الصغيرة، وبعد ثلاثة أيام يأتي حجي راضي برفقة أبيها ويفتح الرباط ويحرك ساقها يمين يسار ويقول: عال عال كل شيء تمام، قومي يا سعاد وتخطي بعض خطوات لأرى، نعم نعم كل شيء تمام صحة وعافية الله يحرسك ابنتي ويخليك لشبابك وتتربين بعز أبوك الطيب الفريضة الحكيم حلال المشاكل.

ثلاثة أيام مرَّت على فؤاد وكأنها دهر، لا يعرف يسأل مَن ويستفسر مِن مَن... الأفكار تعصف به، والسهر أتعبه وأضناه، ماذا يفعل ولمن يشتكي أمره لا يعلم، ينتظر ابنة أخته نور يسألها، فتجيبه أن سعاد لا تأتي للمدرسة...

- ماذا بها يا نور؟
- خالي والله لا أعرف.
- طيب نور خذي هذه الاحذية الرياضية هدية لك كما وعدتكِ، وغدًا اسألي إحدى المعلمات عن ست سعاد.
- خالو لا أقدر، أخاف من المعلمات والمديرة شديدة أخاف منها، لماذا لا تذهب أنت وتسأل عنها المديرة؟
- اذهبي للبيت، أنتِ بطرانة يا نور.

سعاد سبعة أيام بكاملها في البيت ، جاءت لزيارتها زميلاتها المعلمات والمعاونة والمديرة واستقبلتهم أحسن استقبال وضيفوهم أحسن ضيافة ، ورغم ضخامة البيت وكثرة الأثاث ولكن مع هذا فالذوق ريفي وليس هناك تناسق بالألوان ورقي باختيار الأثاث والمفروشات والستائر ، وعائلتها محافظة أكثر من اللازم ، واضح أنهم من الريف لم يرتقوا لمستوى أهل المدينة... أم سعاد تقرر وتطلب من المعلمات قبول دعوتها لأمسية في بيتهم بمناسبة شفاء سعاد وعودتها للمدرسة، فيوافق الجميع على مساء الخميس الساعة الرابعة، أي بعد يومين.

تجتهد سعاد وأمها وأخواتها في إعداد ما لذَّ وطاب، ويجلب لهم شياع أنواع الحلويات والكرزات من النوع الفاخر من محلات الخيام في العشار مركز المدينة، وأنواع فاخرة من المشروبات الغازية من السينالكو والبيبسي كولا وعصائر تراوبي وروني وأنواع النستلات المستوردة... يتحول البيت إلى ورشة عمل احتفاءً بقدوم المعلمات... كان يوم الخميس يومًا متميزًا في حياة عائلة سعاد ، وفؤاد يراقب من القهوة ويكاد أن يموت من الخوف، لا يدري هل تقدم أحدهم لخطبة سعاد واليوم يوم الحنة أم ماذا حصل ؟ يكاد القلق والخوف يقتله.

# (٨)

سماري يقرر زيارة المشرح لمعرفة أحوال أهله وأصدقائه وبيتهم هناك وأحوال الفلاحين ، ويرجو من صديقه الحميم شياع مرافقته ، يتفق الاثنان على الذهاب صباح الخميس والعودة مساء الجمعة ، يحضر شياع الهدايا لإخوته وأخواته وأبنائهم وبناتهم ، ما شاء الله عشيرة ، ويملأ صندوق السيارة ، وينطلقان في طريق بصرة ـ عمارة العامر أيام زمان بالمزارع ومساحات شاسعة من الشلب والحنطة وقصب السكر على جانبي الطريق وبائعي السمك والرقي والبطيخ والخيار الطعروزي والبامية والباذنجان بأسعار بسيطة جدًا ، والشيء الجميل أنهما سافرا بالسيارة البيكب اب التيوتا دبل قمارة ، أي أنها تتسع لهذه المشتريات ، طريق زاهي بمزارعه ووفرة مائه وجمال بساتينه الغناء وكثرة الخيرات ورخص أسعارها مقارنةً بالمدينة.

يصلان مضيف عريب العُربة على نهر الجادل المتفرع من نهر المشرح ، ويستقبلونهما استقبال الأبطال ويرحبون بهما أجمل ترحيب ، ولكنهما يتفاجآن أن كثيرًا من العوائل الفلاحية هجرت أراضيها التي تملكها بموجب قانون الإصلاح الزراعي وذهبت إلى المدن وخاصة بغداد واستقرت في مدينة الثورة

التي أنشأت في زمن عبد الكريم قاسم، هؤلاء المهاجرون بنوا لهم بيوتًا كيفما اتفق واشتغلوا ببيع الخضار والفواكه والسمك وأنواع الطيور.

أما المضيف فحدث ولا حرج ، رواده عدد محدود جدًا ، والموقد مقتصر على ثلاث دلال بدلاً من الاثنتي عشرة دلة، ولا يقدِّم أي وجبة طعام، والناس يذهبون للفراضة عند مضيف أبو تريكات أو للشرطة المحلية والمحاكم لفض النزاعات.

رحم الله شيوخ العشائر الذين كانوا يلزمون الفلاحين بالعمل المضني والإنتاج لتعلو بيادر الخير في موسم الحصاد في شهر نيسان ، تغير الحال الطحين والرز يشترى جاهز من مدينة العمارة مستورد حاله حال السكر والشاي، نعم تغير الحال بدلاً من التصدير جاء زمن الاستيراد.

يصلان مساء الجمعة إلى البصرة ، يجدان سيد صادق بانتظارهما في المحل وقد بدا عليه القلق والخوف...

- خير سيد صادق؟

- شيخ مزعل وضعة خطير ، وطلبكما بالاسم.

على الفور ينطلقون إلى بغداد فيصلون في منتصف الليل إلى بيت شيخ مزعل في الكرادة ، فوجدوا الرجل يحتضر بسبب جلطة دماغية حادة وبجانبه الطبيب يؤكد للجميع أن الجلطة كبيرة ولا أمل في الشفاء وسيفارق الحياة خلال ساعات.

زوجته سعدة تلطم الخدين على ابن عمها حبيبها الغالي شريك حياتها الذي دللها العمر كله، وتنادي على سماري وشياع:
- اسمعاني، الآن أنتما أخوتي وعشيرتي، شيخ مزعل شيخكما وأبوكما، عليكما أن تقوما بالواجب على أكمل وجه، ولحين وصول أهله وأعمامه من العمارة.
- سامحك الله يا سعدة، أنت أمنا وشيخ مزعل أبونا.

طلبا من النساء إعداد البيت وفرشه ، وسماري أوقد النار ونصب دلال القهوة ، وفعلاً عند المساء فارق الشيخ مزعل الحياة بعد الشهادة وبعد أن همس بأذن شياع كلمات غير مفهومة ، فهم منها شياع أنه يوصيهم خيرًا بأمهم سعدة ، فشدَّ شياع على يده وقبل جبينه، ثم تقدم سماري فقبل جبينه ودعا له أن يكون مثواه الجنة ، وهنا سكن نفس شيخ مزعل ، فأغمض سماري عيناه وغطاه بشرشف وصلى عليه الجميع.

سعدة مع الحسرة والألم تقول:
- لقد أوصاني شيخكم وكبيركم أن يُدفن في النجف الأشرف عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأن يُبنى قبره من خالص حلاله ، وأن يُنصب له مجلس عزاء لمدة سبعة أيام هنا في بغداد وهناك في العمارة والمشرح.

تجمعت عشيرة شيخ مزعل في اليوم التالي السبت حتى ضاق بهم المنزل ، واستعانوا بالجيران للقادمين ، وهيأوا مستلزمات

الفاتحة واستأجروا سرادق نصبوه في الشارع أمام البيت وعلى مدار ثلاثة أيام... ثم قرروا نقل الفاتحة إلى المشرح في مضيف شيخ مزعل ومضيف عريب العُربة وشاركهم مضيف أبو تريكات إلى أن انتهت السبعة أيام، وذهبوا إلى النجف لزيارة قبر المرحوم وزاروا مرقد أمير المؤمنين علي وقدموا الأضاحي وتضرعوا للحي القيوم بالدعاء والصلاة، ووزعت سعدة الثواب على الفقراء، ثم عادوا إلى بغداد وأوصلوا سعدة إلى بيتها معززة مكرمة ووعدوها أن يترددوا عليها لقضاء كل ما تحتاج.

عاد سماري وشياع إلى البصرة لمزاولة أعمالهما والاهتمام بأمورهما وتنظيم عملهما، لكن الوكيل العام الذي مخازنه في منطقة الداكير في العشار قرر رفع أسعار المواد الصحية كافة بنسبة ٢٥٪، وهذا ما أزعج سماري وشياع لأنه ليس هناك سبب مبرر برفع الأسعار... تناقشا بالأمر واستفادا من خبرة السواق الذين يعملون عندهم أن الوكيل العام يستورد المواد الصحية من الكويت وهم يعرفون أسماء التجار في الكويت ويعرفون مخازنهم ومكاتبهم، وهكذا قرر شياع وسماري السفر للكويت والتعاقد مع التجار هناك وتوريد البضاعة بسعر أرخص. قدما طلب الحصول على فيزا بواسطة شخص معرفة كويتي فحصلا على الفيزا خلال ثلاثة أيام... وهكذا استعدا للسفر.

صباح يوم السبت توجها بسيارتهما إلى الكويت المحادة للبصرة الطريق أقل من ساعتين ، توجها على الفور إلى محلات التجار ، واتفقا مع عدد منهم ، ودفعا أسعار الفواتير مع التحميل والنقل والتأمين على وصول البضاعة ، واستغربا من مقارنة الأسعار بين التجار والوكلاء في البصرة الذين يضاعفون الأسعار.

اضطرا للبقاء عدة أيام لشراء مزيد من البضاعة وللتعرف بتجار أكثر وأكبر من هؤلاء ، وأن يكون العمل مستمرًا اعتمادًا على الهاتف أو أوامر الطلبات.

• • • •

استغل فؤاد انشغال شياع أبو سعاد بمراسيم فاتحة شيخ مزعل في بغداد والمشرح وبسفره إلى الكويت ، وذهاب وإياب حبيبته سعاد بالباص يوميًا للمدرسة وجلوسه بجانبها يوميًا والحديث معها وشم عطرها وملامسة جسده جسدها ومسك يدها ووضع يده على كتفها وفخذها ويتعمد بوخز نهديها بعكسه بحجة غلق زجاج النافذة أو أثناء الإشارة بيده متعمدًا ذلك ، وسعاد بين الخجل والراحة النفسية التي تحرك أحاسيسها وتوقد النار في داخلها وتتسارع دقات قلبها ويتصبب العرق منها وتسري رعشة خفيفة محببة في جسمها ليت الأمر يتكرر لكن حيائها يمنعها من التقرب أكثر بجانب فؤاد ، وترفع يده عن فخذها

وعن كتفها مرارًا وتقول له: عيب يا فؤاد الناس تنظر لنا... لكن فؤاد هذا الظاهر جرئ وربما اعتاد مثل هذه الأمور ربما "دون جوان" زمانه.

سعاد تفكر، ماذا جرى يا إلهي لفؤاد؟ وما هذه الجرأة؟ هل لأنه يحبها ويموت فيها أم ماذا في الأمر؟ وتفسر الأمور لصالحها وصالح فؤاد حبيبها المتيم بها.

فؤاد بعد الإلحاح يقنع سعاد أن يذهبا إلى حديقة الأمة في نهاية شارع الكورنيش عند الظهيرة بحجة الذهاب لمديرية التربية في العشار لمراجعة الحسابات لوجود خطأ في راتبها...

سعاد وفؤاد في حديقة الأمة على مصطبة في نهاية الحديقة تظللهما الأشجار وأسيجة نبات الآس ذات العطر المميز، فؤاد يحاول أن يقبّلها، لكنها تنهره وتضع يديها على وجهها وتزجره وتقول له: عيب تريد أن تفضحنا، ماذا يقول عنا الناس... يعتذر منها ويؤكد لها أنه لن يكرر ذلك...

- ولكن يا سعاد لماذا نلتقي أمام الناس؟... بيت أختي أم نور قريبة من داركم وليس غيرها هيَّ ونور في البيت وزوجها يعمل في الكويت ونور في المدرسة، فإن سنحت لنا فرصة أعرفك بأختي ونلتقي عندها ولو لساعة زمن، وكما تحبين بحضورها أو من غير حضورها.

تتردد سعاد بالإجابة، ثم تقول:

- لا ، بحضورها ، ولكن من غير ابنتها نور ، أخاف تتكلم في المدرسة وينفضح أمرنا.

- طيب أنا أخبرك عن الموعد بواسطة نور.

- والآن لنعود فقد تأخر الوقت والدوام سينتهي بعد أقل من ساعة مسافة الطريق.

تعود سعاد إلى البيت وهي توبّخ نفسها : ماذا فعلت ، وكيف وافقت؟ ولو رآنا شخص يعرف والدي وأخبره ماذا أفعل وماذا أقول ، أكيد أبي سيذبحني ويشرب من دمي وبذلك أخسر نفسي وأبي وكل عائلتي ، يا ترى هل أنا مجنونة أو مسني الشيطان أو تلبسني جني ، لابد من زيارة العباس أبو فاضل والحسين أبي عبدالله ليخلصوني من هذا الجني.

دخلت إلى البيت ووجهها مخطوفٌ لونه وهي ترتعش ، ودخلت للحمام وخلعت كل ملابسها ورمت نفسها تحت دوش الماء وهي تدلك نهديها وتتحسس جسمها وتلاحظ عَصب فخذها يهتز بقوة ومغص خفيف في بطنها ، فعلاً تَولدَ عندها إحساس شديد أنها بحاجة ماسة للزواج لتهدأ هذه العواطف الجياشة وهذا الشوق القاتل... ثم تسرح بعيدًا وتعود بها الذكريات لقريتهم في المشرح وكيف كانت أبقارهم في موسم الزواج تخور وتدور وثغائها يصك الآذان ولا تهدأ أبدًا مهما أعطيتها من علف لغرض إشباع بطونها ، إنه الجوع الآخر ؛ الجوع الجنسي ،

الأبقار يجب أن يلقحها ثور لتكف عن الثغاء، هذه سُنة الحياة، وهذه غريزة تحتاج إلى إرادة قوية للسيطرة عليها، يا الله سبحانك ربي الحيوان له حرية التعبير عن إحساسه وشعوره والإنسان أكرم خلق الله لا يحق له التعبير علنًا فيضطر اللجوء للسر، حكمتك يا خالقي، يا الله امنحني القدرة والصبر وخفف عني هذه المعاناة ويسِّر أمري وحنن قلب أبي ليوافق على زواجي من فؤاد، أكيد سأطلب منه في اللقاء القادم وبحضور أخته أم نور أن يرسل أمه وأخته في البداية ليكلما أمي بموضوع خطبتي لفؤاد، أمي تستطيع إقناع والدي لأن كل أولاد عمي أصغر مني سنًا وأقل تعليمًا، وأنا لا أرغب أن أعيش في القرية بعد أن تعودت على حياة المدينة، أصلاً أمي لا توافق أن أعيش بعيدًا عنها مهما كلّف الأمر.

هدأت من روعها، ودوش الماء نوعًا ما برد من عواطفها وأعاد لها اتزانها، سمعت صوت أمها تناديها:

- سعاد الغداء جاهز ابنتي، صار لكِ أكثر من ساعة بالحمام، أرجوكِ عجلي قبل أن يبرد الطعام أخوتك وأخواتك بانتظارك.

خرجت وقبَّلت أمها وحضنتها، والأم مستغربة من ابنتها...

- ما بكِ يا سعاد؟

- ماما أنت أحسن أم في الدنيا أنا محظوظة لأنك أمي أنا أفديك بروحي.

- المهم تعالي للغداء والله يخليك لشبابك ويكون حظك بالزواج مثل حظ أمك خير وبركة.

لم يبقَ شيء على العطلة الصيفية للمدارس وقد بدأت امتحانات المدارس وسعاد نُسِّبت مراقبة امتحانات البكلوريا للصف السادس في مدرسة قرب المستوصف الصحي نوعًا ما بعيدة عن البيت وعن مدرسة الحكمة، وفؤاد يلاحقها كظلها، شُغله مراقب بلدية ليس عنده مكتب فالشارع مكتبه وغير ملتزم بدوام محدد التوقيتات ، ومدير البلدية يفتش على المراقبين بالسنة حسنة ، فؤاد يحاول أن يكلم سعاد ولكن لا مجال لذلك لأن والدها عاد لتوصيلها بالسيارة للمدرسة ذهابًا وإيابًا.

انتهت امتحانات المدارس وحصلت سعاد على كتاب شكر وتقدير من مفتش مديرية التربية والتعليم لحسن أدائها وتوفر وسائل الايضاح التي ترسمها وعلى حسابها الخاص لتسهيل فهم المواضيع على الطالب.

الأسبوع القادم يوم السبت تبدأ مرحلة امتحانات البكلوريا وسعاد تستعد لأداء واجبها على أكمل وجه وتستعين بتوجيهات ست ماري ذات الخبرة العالية.

سماري يلتقي مع شياع ويتناقشان بضرورة إبرام عقود جديدة مع التجار الكويتيين لتوريد بضاعة جديدة ذات مواصفات جيدة إليهم بعد فشل عدد من المواد الصحية رومانية وتركية المنشأ

وضرورة إبدالها من مناشئ أفضل مجربة ، وتم الاتفاق وحصلا على الفيزة التجارية عن طريق غرفة التجارة في البصرة هذه المرة.

يجهز سماري سيارته وينطلقان صباح السبت، وبحكم علاقتهما الجيدة ودقة دفع فواتير الاستيراد وحجم المواد المتعاقد عليها؛ اهتم تجار الكويت بهما غاية الاهتمام وسهلوا كل طلباتهما وعرضوا عليهما بضاعة حديثة لأول مرة تستورد من مناشئ أوروبية ، كذلك عرضوا عليهما بضاعة مستوردة من منشأ صيني بأسعار بسيطة للبيوت الشعبية البسيطة يفضلها كثير من المستهلكين لرخص أسعارها.

سعاد صباح يوم السبت تذهب لمتوسطة الرياحين للمراقبة بواسطة الباص، فؤاد يجلس بجانبها...

- سعاد، نلتقي اليوم.

- كلا، لا أقدر وهذا أول يوم لي بالمراقبة لا أعرف التوقيتات.

- طيب غدًا؟

- سأحاول.

الجو حار ودرجة الحرارة مرتفعة وفؤاد ملتصق بسعاد ويده حول خصرها ، وسعاد تحاول إبعاد يده عنها فيضعها على فخذها فترفع يده، يوخز نهداها بعكسه ويضغط عليهما، سعاد تحس براحة نفسية مصحوبة بالخوف والحياء فتعض بنواجذها

على شفتها السفلى كنوع من التحذير. تمضي الربع ساعة مسافة الطريق وتحاول سعاد النزول من أمام فؤاد فيتجاسر ويمد يده تحت تنورتها متحسسًا فخذها العاري الناعم الملمس، فتهتاج سعاد وتسري رعشة في كل جسدها تكاد يغمى عليها ولكن تتحامل على نفسها وتمسك بالكرسي الذي أمامها وتترك السيارة متعثرة في مشيها...

- يا الله، ماذا يفعل هذا فؤاد بي، أنا لا أستطيع المقاومة، ليتني أستطيع أن أضمه في صدري، ليت كلانا واحد، ليتني أملك طاقية الإخفاء كي لا يراني الناس وأنا مع فؤاد لنأخذ راحتنا.

مدير القاعة:

- ست سعاد تفضلي أنتِ مع ست ندى مسؤولتان عن القاطع ج تفضلا وقعا على ظرف الأسئلة الوزارية قبل فتحها بحضور وتوقيع المراقبين وكل مراقب يأخذ مكانه.

يبدأ بتوزيع الأسئلة:

- ستقرأ ست ندى عليكم الأسئلة، وهناك ثلاث دقائق فقط للاستفسار... خلاص انتهت الأسئلة كل طالبة وجهها في دفتر الإجابة، الوقت ساعتان لا غير مفهوم، استثمرنَّ الوقت وركزنَّ على الاجابة.

سعاد في عالم آخر أضناها التفكير، ليلة البارحة جافاها النوم... فؤاد جريء ومتهور وأنا أخاف الانفراد به، سمعت جدي

عريب العُربة وهو يعظ الناس في مضيفه في قريتنا يقول: لا تدعوا رجلاً يختلي بامرأة حتى ولو كان يُقرئها القرآن، وسمعته يقول: ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، ولكن ستكون أخته أم نور معنا وهي فرصة لأتعرف على أم نور وأطلب منها أن تزورنا مع أم فؤاد لخطبتي من أمي ربط كلام وأمي تقنع أبي بالموافقة، أريد أن أتزوج لأتخلص من كل هذا الإحراج وكل هذا الخوف والعذاب، إذن لماذا أنا أقابل فؤاد في بيت أخته ولماذا لا أتكلم معه في الباص غدًا مثل هذا الكلام وأتخلص من إحراج زيارة بيت أخته...

مدير القاعة:

- ست سعاد: الطالبة في الصف الأخير ترفع يدها لك منذ فترة أرجو الانتباه.

- نعم أستاذ... ما بكِ، ماذا تريدين؟

- ست أريد ماء.

- طيب وجهك في دفتر الإجابة.

- حاضر ست.

اليوم السبت كان امتحان مادة اللغة العربية لمدة ساعتين ونصف، والظاهر الأسئلة صعبة بدليل الطلاب لم يخرج واحد منهم ولم يبقَ من الوقت إلا دقائق.

مدير القاعة يصيح بأعلى صوته:

- طالبات اتركنَّ الأقلام، انتهى الوقت، أنتِ هناك ضعي القلم على الرحلة فورًا، مراقبين جمعوا دفاتر الامتحانات.

نظرت سعاد لساعتها؛ الساعة الحادية عشر وخمس دقائق، سلمت الدفاتر إلى لجنة الاستلام وتم رزمها وختمها، وغادرت سعاد القاعة باتجاه محطة الباص... وجدت فؤاد ينتظرها في موقف الباص المشمس ودرجة الحرارة تجاوزت الخمسين مئوية والرطوبة عالية والناس تستغيث من الحر، اقترب منهما رجل مسن وبيده مهفة يحرِّك بها الهواء ويصيح: ربي هواك ودفع بلاك، الظاهر أنه يعاني من مرض مزمن ضيق في التنفس إنه الربو، تفسح له سعاد مكانًا ليقف هذا الرجل الكبير في الظل وتقف هيَّ في الشمس وقد استغربت من فؤاد لماذا لم يبادر قبلها وهو رجل له القدرة على التحمل.

وصل الباص وركب جميع الركاب الذين كانوا بالانتظار واندفع فؤاد أول واحد داخل الباص ليحجز مقعدين متجاورين ليأخذ شحنة من الطاقة لملامسة جسمه جسم سعاد وليتفق معها على غد...

سعاد:

- غدًا امتحان الإنكليزي ولا أظن ان الطالبات سينهين الامتحان قبل الوقت المحدد، أرى أن يكون موعدنا بعد غد في امتحان الاجتماعيات، أظن أنه يمكنني الخروج في العاشرة، المهم أحاول ولكن ليس أكيد.

سعاد تتهرب من الذهاب إلى بيت أختها أم نور ، هي خائفة ، ومترددة ، شيء في داخلها يقول لها : لا تذهبي ، فؤاد رجل غريب حتى ولو كان حبيب... عقلها يقول لها : أنتِ بنت ناس وبنت عشائر وأبوك شياع ابن عريب العُربة ، حافظي على كرامتك ، حافظي على سمعتك ، حافظي على اسم أبيكِ ، لا تكوني من الآن عجينة لينة بيد فؤاد ، لا تذلي نفسك يا سعاد ، لا تضعف إرادتك وتنهان شخصيتك لنزوة يا سعاد يا بنت شياع ، احترمي نفسك واحترمي الحب الطاهر الذي حاول ويحاول فؤاد بجرأته خدشه بلا حياء ولا وجَلْ.

في اليوم التالي تركب الباص فتجد فؤاد جالسًا في الباص وبجانبه مكان فارغ ، فتقرر سعاد على الفور الجلوس في كرسي بجانب امرأة ، وعند وصولها لمدرسة الرياحين تنزل فينزل معها فؤاد وهو حانق عليها...

- لماذا لم تجلسي بجانبي؟

- فؤاد اسمعني ، أنت تجاوزت الحدود ، وإلحاحك ومتابعتك لي يوميًا في الذهاب والإياب لفت أنظار الناس ، وأنا أخاف من كلام الناس ، عليك أن تفهم أننا فلاحون ، كل ما نملك في هذه الدنيا سمعتنا وشرفنا ، فعليك أن تخفّف من متابعتي وتمتنع من الجلوس بجانبي في الباص إلا بالصدفة ، وأن لا تحرجني وتقيد حريتي ، أرجوك يا فؤاد.

- سعاد ، لم يبقَ على العطلة الصيفية إلا ثلاثة أيام ، بعدها من بالغ الصعوبة أن نلتقي ، ونادرًا ما أراكِ ، ثم لحد الآن لم تقرري موعد لقائنا في بيت أختي أم نور.

- الله كريم يا فؤاد ، والآن اتركني لأذهب لقاعة الامتحان مع السلامة.

ست ندى تقترب من سعاد في قاعة الامتحان،:

- سعاد من هذا الشاب الذي تتحدثين معه في منطقة الباص وأراكِ منزعجة؟

- لا ست ندى، إنه أحد أقربائي يسألني عن أهلي وصحتهم، إنه ابن خالتي ، يودون زيارتنا ، فقلت له دع أمك تكلم أختها وتتفق معها، وعلى كل حال أهلاً وسهلاً بكم متى ما تحبون، فنحن فلاحون نضع الضيوف فوق رؤوسنا ، لقد تعودنا في الريف الزيارات بلا مواعيد ، البيوت مفتوحة وأبواب المضايف مشرعة ، أصلاً المضيف بلا باب لأنه للجميع حتى الأغراب.

## (٩)

أم سعاد قلقة على تأخر عودة شياع وسماري من سفرة الكويت لكن زوجة سماري تطمئنها لأنها سمعت سماري يقول : هذه المرة نتأخر فلربما نذهب إلى قطر والإمارات.

سعاد تقلّب الأمور مع نفسها وتحاول أن توازن بين عقلها وقلبها وتستعيد رزانتها ، لكن عواطفها الجياشة تغلبها ونار الوجد ووجد العشق ينهكها ، إنها بحاجة إلى فؤاد ، ساعة بجانب فؤاد تساوي العمر كله ، آه ما أحلى الحب ، وتدندن مع نفسها أغنية أم كلثوم:

**الحب كده وصال ودلال ورضا وخصام**
**اهو من ده وده الحب كده مش عايزة كلام**
**حبيبي لما يوعدني تبات الدنيا ضحكالي**
**ولما وصله يسعدني ما افكر فى اللى يجرالي**
**ينسيني الوجود كله ولا يخطر على بالي**
**ولما طبعه يتغير وقلبي يبقى متحير**
**مع الافكار ابات فى نار وفي حيرة تبكيني**
**وبعد الليل يجينا النور وبعد الغيم ربيع وزهور**
**اهو من ده وده الحب كده مش عايزة كلام**
**الحب كده.**

يوم الاثنين تركب سعاد الباص ذاهبة للمراقبة في المدرسة فلا ترى فؤاد لا في موقف الباص ولا في داخل الباص ، تتلفت شمال يمين تنظر للشارع دون فائدة ، تقول مع نفسها : سأجده في موقف الباص قرب المدرسة أكيد لكن ماذا أفعل ان شاهدتنا ست ندى مرة أخرى يجب أن أحضِّر عذرًا مقنعًا.

يصل الباص ، تنزل سعاد بحذر وهي تختلس النظرات ، ولكنها لا ترى فؤاد : طيب عندما أخرج من الدوام الساعة العاشرة سأراه حتمًا.

تمر الساعتان ثقيلتين ، وهذا اليوم كانت أسئلة التاريخ سهلة جدًا فكل الطالبات تقريبًا أنهينَّ الإجابة خلال ساعة واحدة... الآن الساعة التاسعة ونصف ، فلأتأخر نصف ساعة لأن فؤاد يعرف أن الدوام اليوم ينتهي في العاشرة.

ذهبت لغرفة الاستراحة ودردشت مع المعلمات وساعدت في رزم دفاتر الامتحانات وعينها لا تفارق الساعة، بعدها استأذنت وخرجت مسرعة إلى منطقة الباص وهي تمسح كامل المنطقة بعينيها الواسعتين الجميلتين فلم تعثر له على أثر ، تترك هذا الباص وتنتظر الباص الثاني ، دقائق ثقيلة تمر ولا أثر لفؤاد ، يأتي الباص وتركب سعاد وتفحص وجوه الركاب واحدًا واحدا، فؤاد غير موجود في الباص ، تجلس وتنظر خلف وتحت الكراس ثم تضحك على نفسها ، معقولة هل فؤاد تحول

إلى قطة أو فأر ماذا دهاك سعاد، هل أصابك مَس من الجنون؟ اعقلي يا سعاد، من ناحية لا تريدين فؤاد يتابعك ومن ناحية تريدين أن يكون لك مثل ظلك، والله لا أعلم هل فؤاد زعل ؟ أم فؤاد مريض ؟ أو كلفه مدير الدائرة بعمل؟ أم لديه اجتماع في الدائرة؟... والله لا أعلم، الله الساتر.

تنزل سعاد قرب بيتهم مقابل المقهى التي تعود فؤاد الجلوس فيه، وتختلس النظر من بعيد، لا أثر للرجل، ماذا ؟ فص ملح وذاب أم تعمَّد الغياب؟.

سعاد في البيت تتغدى مع أهلها، أمها تقول لها:

- أبوكِ سيعود الجمعة إن شاء الله سالمًا غانمًا مع سماري، آه ما أطول الأيام، هذه أول مره أفارق شياع هذه المدة كأنها دهر، لكَ وحشة يا أبو سعاد، الله أعلم أبوكم سيجلب لكم أكيد هدايا كثيرة من دول الخليج العامرة بالبضائع الأجنبية.

- أبي صحيح يجلب لنا هدايا بس مو على الموضة، بابا دقة قديمة شوفي الناس أين وصلت وأبي مازال بعقلية أهل الريف ملابس طويلة موديلاتها عتيقة وألوانها غامقة أسود، بني، أزرق، شوفي الموديلات التي تلبسها معلمات البصرة شوفي زميلاتي ست ندى وست سنابل وموديلات لباسهن، وهنَّ أبدًا ليس أغنى منا في كل الأحوال.

- ماما، رضا الحمد لله، أين كنا وأين أصبحنا، هذا كله بفضل الله أولاً وذكاء أبيك وعمك سماري الله يحفظهما ويطيل في عمريهما ويمنحهما الصحة والعافية.

سعاد لا تشتهي الطعام، أعياها التفكير بفؤاد، تأخذ دوشًا خفيفًا من الماء طردًا للحر اللاهف وتتحسس جسمها وترفع صدرها وتنظر في المرأة الطويلة في الحمام لتقاطيع جسمها وتحس أنها بحاجة إلى الحفافة أم خالد لحف وجهها وتعديل حواجبها، وبحاجة إلى إزالة بعض الشعر الخفيف من ساقيها لتزداد نضارتها وحلاوتها، فتسأل أمها عن الحفافة أم خالد...

- ذكرتِني يا سعاد، ابني زيد أذهب لأم خالد وقل لها أمي تسلم عليكِ وتقول إذا ممكن اليوم الساعة الرابعة مساءً تتفضلين عندنا في البيت، أمي وأختي سعاد بحاجة لخدماتك.

زينب تسأل سعاد:

- يا سعاد ألم تقولي لي عدة مرات لا يصح أن يأخذ الإنسان دوشًا بعد تناول الطعام مباشرةً، وتقولين أبو المثل يقول تغدى فتمدى وتعشى فتمشى.

- نعم ماما هذا صحيح ولكني لم آكل شيئًا اليوم، أحس أني مرهقة من وقفة المراقبة ومن شدة الحر اللاهب ومن هذه المبردة التي لا تبرِّد الهواء كما يجب... ماما، حدثتني صديقتي ست ندى أن لديهم في الهول مكيف هواء ياباني

يبرد لهم الهواء ، تقول : أقضي معظم وقتي مع أهلي في الهول البارد على هواء المكيف العليل... بربك قولي لأبي يشتري لنا مكيفًا للهول.

- حاضر سعاد ، الله يرحم أيام زمان كنّا في المشرح لا كهرباء ولا حتى مروحة بسيطة ، ولكن الدنيا تطورت وإحنا لازم نعيش مثل الناس الأغنياء.

• • • •

تتمدد سعاد على سريرها في غرفتها على ظهرها وتركز عينيها في سقف الغرفة المعلقة فيها مروحة سقفية ، المروحة تدور وسط وردة بيضاء من الجبس وحافات السقف مطرزة بشريط من الورود المذهبة من الديكور المغربي المشهور ، غرفة سعاد جميلة ومرتبة ، فيها دولاب من خشب الصاج ومكتب صغير وكرسي راحة واحد هزاز ، وميز تواليت مطرز بأنواع العطور والزيوت وأدوات المكياج ذات اللون الوردي الخفيف جدًا ، وسرير نوم ، وفي الغرفة مرآة الدولاب الكبيرة والطويلة والتي ترى سعاد نفسها فيها بالكامل ، وخاصة عندما تحب أن ترى تقاسيم جسمها بعد الاستحمام عارية تمامًا هذا يعجبها وخاصةً عندما تتحسس نهديها وتطوق خصرها وتمر براحتيها على الأجزاء الحساسة فتتأوه ، إنها في ذروة النضوج الجنسي... ماذا أفعل يا ترى هل أصرخ كما تثغي

الأبقار في الريف في فصل الربيع عندما تحس أنها بحاجة للزواج، لا أعرف هل تعلم الأبقار مشاكل الزواج والحمل أم لا تعلم، ولكني تعلمت من أمي وخالاتي وعماتي معنى السعادة عند الحمل رغم آلام الولادة ومسؤولية تربية الأطفال، وتعلمت من زميلاتي المعلمات معنى السعادة عندما يتقدم شاب لخطبة أحداهن ، ست سنابل صديقتي في المدرسة تحكي لي أدق التفاصيل بينها وبين زوجها حتى الجنسية، إنها ساعات العمر كله خاصة إن كانت بين الاثنين علاقة حب صادق، ما أجملها لحظات النشوة والحب وكأن كلانا واحد ، قلب واحد وجسد واحد ونفس واحد ، عالم جميل سبحان الله الخالق المبدع ، ما أسعد الفتاة عندما تحب وعندما يكون نصيبها شاب جميل يحبها ويحترمها ويخلص لها ويساعدها في بناء عِش الزوجية السعيد المبني على التفاهم والحب والانسجام، فأنا أنت وأنت أنا كلانا واحد.

تركز على وردة السقف الجبسية البيضاء الكبيرة فترى في داخلها خيالاً يتحرك سرعان ما يثبت وتوضح فيه صورة، آه إنها صورة فؤاد... لقد ظلمت فؤاد، لماذا أخاف منه؟ لماذا لا يكون صادقًا في حبه أمينًا في وعده؟ أنا أحب أن يكون بيننا حب طاهر شريف ينتهي بالزواج ، لا أحب أن أكون معلقة هكذا لا طائلة سماء ولا أرض، أنا أخاف من السقوط، أريد أن أقف على أرض صلبة ، ورغم حبي الجارف لفؤاد ولكن

وقاحته وجرأته معي أحيانًا تجعلني أخاف من تهوره، فمعنى هذا أنه ليس رزن متزن بما فيه الكفاية، أحيانًا أفكّر رغم حبي له أنه إنسان كل هدفه الجنس وليس الحب وبناء عائلة، طيب لأجرب اللقاء به في بيت أخته أم نور وأطلب ما أريده وأتمناه، ولكن إذا خابت آمالي معناها ضياع الحب وضياع هذه الأحاسيس الجميلة وهذه الأحلام الرائعة وكل صور المستقبل المشرق الذي بنيته في خيالي والذي أصبح كل حياتي وكل آهاتي وكل تنهداتي وكل هذه الحياة الروحية الجميلة وكأني أعيش في عالم مثالي وأحس أن لي قدرات عجيبة غريبة، أنا أستطيع أن أصنع المستحيل؛ هكذا يُخيل لي.

تذكرت قيس وليلى وجميل وبثينة وروميو وجوليت، وقصص المنفلوطي البديعة وقصص إحسان عبد القدوس الجريئة... يا إلهي وفقني في هذه الحياة وافتح أبواب السعادة في وجهي وحقق مناي ورجائي يارب يا رحمن يا رحيم... هل اتكل على الله وأحدِّد موعد لقاء مع فؤاد قبل أن تنتهي المراقبة وقبل أن يصل أبي من سفرته، إنها فرصة، لم يبقَ من فترة المراقبة غير الأربعاء، والخميس تبدأ العطلة الصيفية الطويلة ثلاثة أشهر بأيامها ولياليها، يجب أن أقرر، هل أستشير أمي ؟ كلا وألف كلا لأنه أكيد لا توافق وسيراودها الشك وتفقد ثقتها بي، هل أستشير زميلتي ست ندى غدًا في المدرسة أثناء المراقبة وأطلب منها النصيحة وإن كان من الممكن أن ترافقني في هذه

المهمة العصيبة ، كلا إنها ربما تفضحني وتحدِّث سنابل وغيرها بالموضوع وينتشر الخبر بين المعلمات وتؤنبني المديرة وست ماري ، اذن لا حلّ امامي غير مقابلة فؤاد وهو يحبني ويخاف عليَّ وأمنيته الزواج مني، ولكن هذا تهوره ربما نزوة شباب أنا مثلاً يمنعني حيائي ولكنه رجل أكثر جرأة وجسارة، المهم غدًا أرى فؤاد وأتحدث معه.

صباح الأربعاء صعدت سعاد الباص وجلست في مؤخرة الباص وإذا فؤاد بجانبها...

- الحمد لله، أين كنت يا فؤاد ؟

- أنا زعلان عليكِ ، أريد مقابلتك لوحدنا لنتفق على كثير من الأمور وأنتِ لا تعطيني لا حق ولا باطل ، الظاهر أنكِ لا تثقين بي ولا تثقين بحبي لك ، أنا اكاد أجن ، والله سأفقد صوابي ، يا سعاد اتقي الله فيَّ ، أنا في حالة هذيان ، أرجوكِ أتوسل إليكِ ارحميني، ارحمي حبنا.

- يا فؤاد اخفض صوتك نحن في الباص ، المهم اليوم نتفق إن شاء الله انتظرني الساعة العاشرة غدًا عند انتهاء الدوام وكذلك انتهاء فترة المراقبة.

- ولماذا ليس اليوم؟

- قلت غدًا ، مع السلامة فؤاد.

مدير القاعة :

- اليوم المادة الأخيرة في امتحان البكلوريا ، الوقت المحدد للإجابة ساعتان فقط ، غدًا تبدأ العطلة الصيفية ، أتمنى لطالباتنا النجاح وعطلة سعيدة للجميع.

توزع أسئلة العلوم من قبل المراقبين ، سعاد تقترب من ست ندى وتسلم عليها وتقبلها خدًا بخد حفاظًا على المكياج:

- سأفتقدكِ يا ست ندى العطلة كلها ، ولكن لماذا لا تزورونا نحن نحب الضيوف،؟

- إن شاء الله، إذا سنحت لنا فرصة.

سعاد تكلم نفسها : هل أناقش الموضوع مع ست ندى ، ومن تكون ست ندى ، إنها مجرد زميلة أجهل عنها أمورًا كثيرة ، سأعتمد على الله وعلى قوة إرادتي وأكيد فؤاد لن يتهور هذه المرة لأني ضيفة عزيزة عندهم وأخته أم نور موجودة.

انتهى امتحان العلوم ، وجمع المراقبون كل الدفاتر وتم عدها ومقارنتها بعدد الطالبات ، كل شيء تمام كل شيء مضبوط شكرًا لمفتش التربية والتعليم شكرًا للمراقبين شكرًا للفراشين شكرًا لمدرسة الرياحين التي استضافتنا ، أحتاج إلى عشرة طالبات بإشراف المراقبين لتنظيم الرحلات.

سعاد تنظر لساعتها، إنها تقترب من العاشرة، تستأذن من مدير القاعة وتودِّع المعلمات المراقبات وتسرع باتجاه الباص فتجد

فؤاد واقفًا في منطقة الباص فيركبان ويجلسان متجاورين ، الكلام همسًا...

- فؤاد، صف لي بدقة مكان بيت أختك، أنت تسبقني وتقف في الباب مع أختك وأنا من منطقة الباص سأتوجه لكم، فؤاد أنا اثق بك أرجوك كن عاقلاً وأضبط نفسك ، عيب من أختك ماذا تقول عنا، قريبًا نتزوج إن شاء الله وكل شيء تمام.

فؤاد ينزل من الباب الخلفي للباص ، وسعاد تنزل من الباب الأمامي، فؤاد يسرع الخطى وبمسافة خمسين متر سعاد خلفه، تبطئ سعاد قليلاً يصل فؤاد بيت أخته.

تفتح أخته أم نور له الباب ، ويقفان في باب الدار ، وخطوات وتصل سعاد وتسلم على أم نور وتقبلها وتحضنها وكأنها تعرفها من زمان وتسألها عن نور وهم يهمون بدخول الدار...

- من أين تعرفين نور ؟

فيجيب فؤاد:

- إنها المرسال بيني وبين سعاد.

- تفضلا في غرفة النوم لأنها لا تطل على الشارع.

- سعاد: لا... لا... أين غرفة الضيوف؟

- غرفة الضيوف شباكها على الشارع مباشرة وأخاف أن يُسمع صوتكما، اطمئني أنت ضيفتي بالحفظ والصون.

سعاد وفؤاد وحدهما في غرفة نوم أم نور يجلسان على حافة السرير، وأم نور تستأذن لعمل الشاي.

- سعاد : لا... أم نور، لا أريد أي شيء الوقت ضيق أرجو أن تبقي معنا نحن بحاجة إليك لأننا نريد أن نكلفك بخدمة لنا نحن أخوتك.

- تدللا، دقيقة وأجلب الشاي ونجلس نتحدث على راحتنا.

تخرج أم نور وتغلق الباب خلفها...

يتقرب فؤاد من سعاد ويحتضنها ويعصر صدرها على صدره، تحاول وضع يديها بينه وبينها ولكنه يطبق على شفتيها ويمتصها بشراهة، فترتخي يداها وتذوب بين يديه، وهو مازال يمص شفتيها، يفتح أزرار قميصها ويرفع الستيان للأعلى فيكشف عن نهدين ناهدين لم تمسكهما من قبل غير يدي سعاد نفسها، فتسحب سعاد نفسًا عميقًا، فيداعب بأطراف أصابعه الحلمتين كأنهما صاروخان موجهان، وسعاد في شبه غيبوبة، تحاول أن تستجمع قواها، أن تقول شيئًا، فيطبق بفمه على نهدها الأيسر ويده اليسرى تداعب نهدها الأيمن، ويده اليمنى تذهب لتداعب المنطقة الحساسة، فتنهار سعاد وتدخل في شبه غيبوبة ولا تسمع منها غير الآهات والتأوهات، إنها في مرحلة النشوة وعدم الإحساس بأي شيء حولها، يسحب تنورتها ويحصل المحذور الذي تخاف منه سعاد، لكنها تستسلم

وتعيش في عالم آخر غير عالمها، فؤاد السخيف بلحظة طيش ورعونة يغتصب سعاد ويزيل بكارتها ، وبعد أن تفيق من نشوتها وتتحسس الدم على فخذيها تصرخ بصوتٍ مبحوح:

- ماذا فعلت يا فؤاد ؟ ذبحتني يا فؤاد ، ذبحتني بسكينة عمياء الله ينتقم منك، ماذا أقول ماذا أفعل؟ أين أنتِ يا أم نور ؟ تعالي شوفي ماذا فعل فؤاد.

تأتي أم نور:

- ماذا حصل ؟

- أنظري ماذا فعل فؤاد.

- لا تخافي، غدًا نخطبكِ وخلال أسبوع تتزوجان، وهذه سُنة الحياة، اعتبرا نفسيكما من اليوم زوجين، اتركا الأمور لي أرتبها لكما ، اعتمدا عليَّ أنا أختكما الكبيرة... قومي سعاد للحمام غسلي وسأجلب لكِ ملابس داخلية جديدة من عندي وتنورة لأن ملابسك عليها آثار دماء، سعاد لا تخافي ثقي بيَّ.

سعاد شيئًا فشيًا تستعيد وعيها وشيئًا من قواها، وتجهش في البكاء، فتجلس أم نور بجانبها تواسيها وتطبطب عليها وتمسح وجهها وتمسح فخذيها وتسحبها إلى الحمام.

فؤاد يلبس ملابسه ويغادر الغرفة بعد تعديل تسريحة شعره ووضع شيء من العطر وكأنه لم يرتكب جريمة بحق سعاد

المسكينة ، لقد تآمر فؤاد مع أخته أم نور على ذبح سعاد بكل نذالة وسفالة ، سعاد هذا الكائن الوديع الجميل لم تقتل عمدًا في حياتها دودة واحدة ، بنت الأخيار بنت الريف الشريفة العفيفة هكذا تسوقها الأقدار بيد حفنة من السفلة الساقطين وتُذبح كما تُذبح حمامة السلام الحُرَّة الطليقة بلا ذنب وبلا جريرة.

أم نور تساعد سعاد على الوقوف وغسل فخذيها وساقيها وغسل وجهها ، وتلبسها ملابسها وتأتي بها إلى غرفة الضيوف وتعطيها قدحًا من الماء... سعاد تسأل:

-أين فؤاد ؟

- خرج بعد أن وبخته وزعل عليَّ قائلاً لي إنها ستصبح زوجتي، لماذا تعتقدين الأمور يا أم نور ؟

ترتاح سعاد قليلاً وتسترد أنفاسها وتصلح من وضعها وتكلم أم نور :

- ماذا يا أم نور ؟ أرجوكِ انقذيني.

- قلت لكِ لا تخافي واعتمدي عليَّ أنا أختك الكبيرة وخلال أيام سنأتي أنا وأمي لخطبتك من أمك ، بعدها نرسل رجالنا لقراءة الفاتحة، وبغضون أقل من شهر تتزوجان، خاصةً إذا وافق أبوكِ على إعطائكما دار سكن من دوره الكثيرة وساعدكما في تأثيثه الأثاث الذي يليق بكما ، أما العيشة فهي ميسورة لأن فؤاد موظف حكومي وأنتِ معلمة ورواتباكما

تكفي وزيادة ، ماذا أقول أنا ، طلقني زوجي وترك لي نور والبيت إيجار ، ليتكما تقبلان أن أعيش معكما أخدمكما العمر كله.

تعود سعاد تجر الخُطى مكسورة الخاطر إلى بيت أهلها ، لقد حصل ما كانت تخشاه وأكثر ، لقد ذبحها فؤاد ، كانت خائفة أن يلمسها ؛ أن يقبِّلها ، أن يضمها لصدره ، لم تتوقع أبدًا ان يعتدي عليها بهذه الهمجية ويغتصبها وبمساعدة وتدبير أخته المجرمة أم نور.

وصلت سعاد إلى بيتهم ووجهها مخطوف وقواها خائرة والحزن يملأ عينيها والدموع تنهال منها مدرارًا على خديها وتتعثر في مشيتها ، ومن فرط ارتباكها لبست فردة من حذائها وفردة من حذاء أم نور ، وحال دخولها للبيت توجهت لغرفتها مسرعة، ولكن أمها لمحتها فتبعتها إلى غرفتها...

- خيرًا سعاد ، ماذا حصل؟ هل حصل لكِ حادث في الطريق؟

فارتمت سعاد في حضن أمها وأجهشت بالبكاء ، والأم في حيرة من أمرها... لحظات عصيبة مرَّت على زينب تريد معرفة الذي حصل لسعاد ، وسعاد تجهش بالبكاء والأم تحاول تهدئتها :

- ماذا سعاد ؟ فهميني ، أكاد أموت من الخوف ابنتي ، انطقي قولي.

بصوت مخنوق متهدج يملأه الخوف والرعب:

- أمي، ذبحني فؤاد وأخته أم نور ؟

- ومن يكون هذا فؤاد ومن تكون هذه أم نور ؟

- فؤاد شاب أحببته ووثقت به ، استدرجني أنا الغبية مع أخته وذبحاني.

- الله ينتقم منكِ سعاد ، ماذا فعلتِ ؟ ضيعتي نفسكِ وضيعتِنا معكِ ، الله لا يرضى عليكِ سوَّد الله وجهكَ يا سعاد بنت زينب ، قتلتونا قاتلكم الله ، ماذا أفعل وماذا أقول ؟ وكيف سنواجه أباكِ عندما يعود من السفر غدًا أو بعد غد.

زينب لطمت خدها وشدت شعر سعاد وكادت تخنقها ، وسعاد تقول لأمها:

- اقتلوني، خلّصوني من عذابي وعاري.

زينب تستعيد رباطة جأشها وتسأل سعاد:

- أين بيت أم نور هذه؟

- إنه مقابل دكان سيد علي البقال.

زينب تلبس عباءتها وتذهب إلى محل سيد علي تسأل عن أم نور، سيد علي يعرف بيت شياع ويحترم شياع كثيرًا...

- عمي، أنتم ناس طيبون، وهذه امرأة تعيش لوحدها.

- المهم، شكرًا سيد.

تطرق على الباب تخرج لها أم نور...

ـ أنتِ أم نور؟

ـ نعم أنا، تفضلي.

ـ ممكن أدخل؟

ـ تفضلي.

ـ أنا أم سعاد، ماذا فعلتما بابنتي أنتِ وأخوك؟

ـ أهلاً وسهلاً بأم سعاد.

ـ لا أهلاً ولا وسهلاً، أجيبيني ماذا فعلتما بابنتي يا مجرمين؟

ـ خالة لا تغلطين، بكرى نحن نسائب، وفؤاد سيصلح الأمور وبعد بكرى نأتي أنا وأمي نخطب منك سعاد إلى فؤاد، إنهما يحبان بعضهما وبينهما علاقة حب قوية وطيش شباب، أنا أعدكِ أن كل شيء يتصلح وما يصير إلا خاطرك طيب، وسعاد جاءت إلى فؤاد برغبتها ورضاها وليس بالإكراه، ساعدوهما على الزواج وسهلوا أمورهما، ويصير خير إن شاء الله... أم سعاد أنتِ امرأة عاقلة، وأرجوكِ أن نعالج الأمر بحكمة وعقل، ولأنكم أهل خير والله مفضل عليكم فالكرة في ملعبكم الآن وعندكم إمكانية حل الموضوع بستر وكتمان وبدون فضائح، كل الموضوع أن يساعد أبو سعاد ابنته وفؤاد على الزواج ويعطيهما بيت من بيوته الكثيرة ما شاء الله وشوية فلوس ويشغل فؤاد معه بعد الدوام، ولا توجد مشكله إلا ولها حل، والآن الحل بأيديكم، إذا المقتدر يبخل

على أولاده ؛ الله يساعد الفقير إذا مرَّ بمحنة لا يقدر على حلها... أم سعاد : كل شيء ينحل بالفلوس ، وخيركم كثير والحمد لله.

ـ هذا يعني إنكم داخلين على طمع ، وأنتِ وأخوكِ خططتم لابتزازنا ، الله لا يرضى عليكم وينتقم منكم يا كلاب أولاد الكلب ، والله والله راح تشوفون حق ابنتي سعاد نأخذه منكم مربع وراح تطير رؤوس.

ـ انتبهي لكلامك أم سعاد ، أنتِ في بيتنا وتهددين وتتوعدين ، المفروض أنكِ تطلبين مني المساعدة لأقف معك في إيجاد أفضل الحلول ، المهم قدر وصار ، وبدل ما نكبر الضرر دعينا نسيطر على الموضوع ونقنع الرجال بقراءة الفاتحة ونفرح سعاد وفؤاد ، أنا أرى هذا التصرف الصحيح ، والعصبية لا تخدمنا بمثل هذه الظروف.

ـ أنتِ بطرانة ، العتب ليس عليكِ ، ولكن على سعاد الغبية التي صدقتكم وائتمنتكم ودخلت بيتكم يا ساقطين.

ـ أرجوكِ لا تتجاوزي حدودك ، ولو أنتِ معذورة ، المهم بعد ما ترجعين إلى بيتك فكري بعقل ، وأنتظر منكِ زيارة ثانية لنتفاهم بهدوء.

ـ أنتِ لا تقدِّرين سوء العاقبة إذا عرف أبو سعاد بالموضوع ، والله أنا متأكدة أنه سيقتلنا شر قتلة... أين ذهب هذا الحقير فؤاد؟ أين خبأته؟ انطقي يا بنت الكلب.

- أم سعاد ، والله عيب هذا الكلام ، أرجوكِ احترسي أن يسمع الجيران ، أنا أعاهدكِ على مساعدتكِ ومساعدة سعاد وفؤاد وأن أكون عونًا لكم ، وفؤاد ضروري يصلح غلطته ويتزوج سعاد وبسرعة ، ونحن من جانبنا حاضرون وننتظر موافقتكم وأنتم على كيفكم ، أنا أعرف يا أم سعاد أنه من بالغ الصعوبة اتخاذ قرار الآن ، وضروري تهدئة الأمور... يا أم سعاد اشتروا ابنتكم بالفلوس.

- اسمعيني جيدًا أم نور : لكم عطوة [1] ثلاثة أيام تأتون لخطبة سعاد وحل المشكلة بهدوء وتفاهم ، وإلا نحن عشيرة كبيرة نفنيكم فني أنتِ وأخوكِ وكل أهلكِ.

- لا داعي للتهديد والوعيد ، أنا أتكفل أمام الله وأمامك والحسين أبو عبدالله والعباس أبو فاضل وشفاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وحق فاطمة الزهراء نحن عندكم بإذن الله بعد ثلاثة أيام ، اليوم الخميس ، مساء السبت نحن قادمون خطابة ، في البداية نأتي أنا وأمي لربط الكلام والاتفاق على الخطوط العريضة ، ثم نحدد موعد الخطبة الرسمية.

- لا... لا ، تأتون مرة واحدة خطبة رسمية مساء السبت ، أما أنتِ وأمكِ فتأتيان اليوم الساعة الرابعة حتمًا لنتفق وليرتاح

---

**(١) عطوة : فترة سماح دون اتخاذ أي إجراء.**

قلبي ولتطمئن الغبرة سعاد وتهدأ ، الله ياخذها ويخلصنا منها ومن عارها.

- يا أم سعاد ، أي عار ؟ البنية راح تتزوج حبيبها وتستقر مثل بنات الناس ، بعد أي عار ، اعتبروها تزوجت وخلاص ، لا تعقدوا الموضوع.

أم سعاد تصلح عباءتها على رأسها وتستعيذ بالله ، وتقول : لنا موعد اليوم ، سأنتظر وسنرى.

تخرج أم سعاد من البيت مهضومة مكلومة مرتبكة ، تعثر في عتبة البيت ، تسمع سيد علي يقول لها : اسم الله ، خير أم سعاد إن شاء الله خير ، فلا ترد عليه وتواصل سيرها إلى بيتها... تدخل إلى غرفة سعاد فلا تجدها ، ولكنها تسمع دوش الحمام فتعرف أنها في الحمام ، فتنادي عليها :

- سعاد أنتِ في الحمام؟

فترد سعاد بصوت خافت :

- نعم أنا في الحمام.

بعد دقائق تخرج سعاد من الحمام وتدخل غرفتها ، فتتبعها أمها :

- اسمعي سعاد ، حضري نفسك الساعة الرابعة اليوم ستأتي أم نور وأمها لربط الكلام ، ويوم السبت مساءً يأتي أهل فؤاد لخطبتك رسميًا أمام الناس ونخلص من هذه الورطة ، الله لا يرضى عليك يا سعاد ، ضيعتي كل تعبي معكِ ، ليتكِ ما جئتِ

لهذه الدنيا، المصيبة معلمة تعلم الناس، لماذا لم تعلمي نفسكِ أولاً حتى تعلمي بنات الناس؟ يا معودة أنا وأخواتي خالاتك أميات لم نتعلم ولم يدخلنا أهلنا المدارس في الريف، ونتفهم الأمور أكثر منكِ مائة مرة، الست متعلمة -وتهز يدها باستهزاء-، البنت أعز ما تملك شرفها، البنت مثل شيشة الزجاج ومثل فازة البِلوّر إذا انكسرت لا يمكن تصليحها، افتهمتي يا متعلمة؟ الله لا يسامحك على عملتك السودة هذه، سودتِ وجوهنا، الله يسود وجهك يا سعاد بنت زينب.

( ١٠ )

أم سعاد وبناتها الأصغر من سعاد يرتبنَّ غرفة الضيوف ويحضرن الشاي والبسكوت والكيك، وفِي تمام السعة الرابعة يطرق الباب، فتفتح أم سعاد وتقابل أم نور وأمها بوجهٍ متجهم وترد السلام ببرود، ولكن أم فؤاد تقبّل أم سعاد وتعتذر منها...

- سوَّد الله وجه فؤاد، سوَّد وجوهنا، طيش شباب ماذا نعمل؟ الأبناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون، هذه حكمة الله جلَّ جلاله، كل شيء يتصلح يا أم سعاد، وأنا وابنتي قادمتان لتصليح الأمور وخطبة سعاد، وإن شاء الله خير وبركة.

- المهم، تفضلا اجلسا في غرفة الضيوف وإن شاء الله يصير خير، أنا خائفة من شياع أبو سعاد تصعد عنده الغيرة والحمية ويقتل سعاد وفؤاد، هذا ابن عريب العُربة فريضة العرب والعشائر وليس ببساطة يتقبل الموضوع، إنه حادث جلل خُطط له لذبح ابنتي سعاد، العتب مو فقط على فؤاد المتهور؛ العتب أيضًا على أم نور التي ساعدت فؤاد يرتكب جريمته، الله لا يرضى عليكم ويمردكم مثل ما مرتونا.

- أم سعاد يا أختي عيب هذا الكلام نحن ضيوفك، وأنت بنت عشائر وإكرام الضيف واجب.

- نعم... نعم، لندخل بالموضوع.

- حَكت لي ابنتي أم نور الحكاية وفعلاً أم نور وفؤاد مقصران والبنت كانت ضيفة عزيزة عندها ، لكن ماذا نعمل ؟ قدر وصار والله يصبركم ويصبرنا ، ولكن العقل حلو وكل مشكلة ولها حل وأنتم أبوكم تقولون عريب العُربة حلال المشاكل ونحن ضروري اليوم نتفاهم ونضع حلولاً لهذه المشكلة ، ونحن مذنبون من ساسنا لراسنا يا أم سعاد ، والمسامح كريم... نحن نحب أن نخطب سعاد إلى فؤاد ونريد رضاكم عنا ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، أبو فؤاد حارس مدرسة راتبه قليل ، وأم نور مطلقة نحن نساعدها ، وفؤاد موظف بسيط في البلدية ، أتمنى عليكم ان تساعدوا فؤاد وسعاد لتهيئة سُبل الزواج بأسرع وقت ممكن نتفق عليه ، وإذا ممكن أبو سعاد يخصِّص لهما بيتًا ملك من أملاكه الكثيرة ما شاء الله ، الله يبارك ويزيد ، ويشغل فؤاد معه بعد الدوام لتحسن أمورهما وسداد ديونهما وقوم لتعاونت ما ذلت يا أم سعاد.

أم سعاد تكلم نفسها : ماذا في الأمر ؟! نحن نشرط عليهم وهم يلبون طلباتنا أم هم يشرطون علينا؟ ماذا حصل؟ الأمور أراها مقلوبة وكلام أم فؤاد غير مقبول ، ولكن أمر الله وحكمته ، الله يذلك يا سعاد مثل ما ذلتِني يا بنت شياع.

- طيب أم فؤاد، ولو أني غير متقبلة مثل هذا الكلام، المفروض تقولي تدللوا كل طلباتكم مجابة وأنتم تأمرون ونحن ننفذ ،

ولكن وقع الفأس بالرأس ، المهم أنا أحاول إقناع أبو سعاد بهذه الطلبات وشوية شوية ليس كلها دفعة واحدة حتى لا يرفض ، صبركم بالله ، المهم مساء السبت تتم الخطبة الرسمية.

- إن شاء الله هذا وعد، ونحن يشرفنا أن نناسبكم يا أم سعاد.

يشربون الشاي وتخرج أم فؤاد وابنتها أم نور ، وتودعهما أم سعاد لباب الدار... تستطرد أم فؤاد:

- كنت أحب أن اسلم على خطيبة ابني فؤاد
- إنها مريضة ونائمة في غرفتها وحالتها النفسية تعبانة ، ما حصل ليس بالشيء السهل، إنها مسألة شرف.
- المهم أم سعاد أرجوكِ أن تبذلي قصارى جهودك بتنفيذ ما اتفقنا عليه، مع السلامة.

تدخل زينب غرفة سعاد فتجدها ممدة على فراشها سارحة بأفكارها تائهة ضائعة توقف عندها الزمان، لم تعد تشتاق لفؤاد هذا الذي أذلها واستباح حرمة جسدها الطاهر ودمر عائلتها ، إنها تستحق ، الموت يجب أن تضحي في سبيل سمعة أهلها والحفاظ على اسمهم بين الناس وعند أبناء عشيرتها... تنتبه إلى صوت أمها فتجلس القرفصاء على سريرها وتدفن وجهها بين ركبتيها وتغطي رأسها بيديها...

ـ اسمعي سعاد ، جاءت أم نور وأم فؤاد قبل قليل لخطبتكِ ، واتفقنا تقريبًا على كل شيء ، الله يجازيكِ سعاد ، هما فرضا شروطهم علينا ، وأنا مجبرة أن أقول: حاضر ، والله لولا عملتك السودة هذه لطردتهم من أول لحظة ، لكن ما العمل وهم ماسكينا من يدنا التي تؤلمنا ؟ المهم ، علينا يوم السبت تهيئة الأمور ، وعليكِ أن تكوني عاقلة وتتصرفين بعقل وحكمة ، فجدك عريب العُربة حكيم العرب ، لا تنسي ذلك ، لا أريد أي عمل متهور يصدر منكِ، أنا في حيرة من أمري هل أقول لأبوك عند قدومه أم أكتم الموضوع وننتظر يوم السبت وأحاول أن أقنعه بالموافقة على هذه الخطوبة، والله يا سعاد أخاف عليكِ من أبيكِ لا يتحمل الصدمة فيموت أو يقتلك ويضيع نفسه ونضيع كلنا ويضيع كل ما بناه جدك عريب العُربة وما بناه أبوك مع صديقه المخلص سماري حتى أصبحا من كبار تجار البصرة... يا إلهي ساعدني على اتخاذ القرار الصحيح ، المشكلة أنا أعرف وأم نور وأمها وفؤاد يعرفون، وربما سيد علي البقال عرف شيئًا أو شكَّ في شيء والله أعلم، الخبر إذا شاع بين أكثر من اثنين انتشر ؛ الحكمة التي تعلمناها من عمي عريب العُربة رحمه الله.

زينب تفكّر بعمق وتهتدي لقرار أن لا تقول شيئًا لزوجها شياع عند قدومه خوفًا من تهوره وإثارة النخوة العشائرية التي تربى عليها في داخله ، وكرد فعل فوري ربما يقتل سعاد ويغسل

عارها... لا ، لا ، لن أنطق بكلمة واحدة... ولكن فرضًا لو عرف بطريق الصدفة ماذا أعمل؟ أكيد سيطلقني ان لم يقتلني، وكلاهما واحد. إذن عليَّ أن أحترم نفسي وأصمت، والله كريم.

• • • •

مساء يوم الجمعة يعود سماري وشياع محملين بالبضائع والهدايا ، ويوصل سماري شياع إلى باب بيتهم ويساعده في إنزال الحقائب والهدايا ويودعه... تفتح أم سعاد الباب وتستقبل شياع، ولكن بنوع من التوجس والخوف، يستغرب شياع ولكن التفاف ولديه وابنتيه حوله أخذ يقبلهم وهم يقبلون يديه ويحضنونه، سأل شياع عن سعاد...

- إنها مريضة، عندها مغص كلوي، أخذتها للطبيب فأعطاها علاجًا ومهدئًا ونامت ، الطبيب قال تحتاج راحة ثلاثة أيام وستقوم بالسلامة.

- أين هي الآن ؟

- نائمة.

- طيب، هيئي لي الحمام.

يدخل الحمام، وزينب تذهب للمطبخ لإعداد سفرة الغداء.

شياع يطلب من زينب أن توقظ سعاد من النوم لتأكل معهم...

- لا يا شياع دعها ترتاح.

شياع يوزِّع الهدايا على زينب والأولاد والبنات، وحصة الأسد إلى سعاد ، بعدها ينام ساعة من الزمن ويشرب الشاي ، ثم يذهب إلى المحل فيجد الأمور كلها بخير وسيد صادق موجود جاء ليسلم عليه ويقول له كل الأمور بخير ، وعلاقته طيبة مع عائلة شيخ مزعل وأرسل لهم كامل حقهم إلى بغداد ، واستلمت سعدة زوجة المرحوم شيخ زامل كامل المبلغ وأرسلوا لهم مزيدًا من الحبوب من محلهم في الشورجة الذي يديره الآن شقيق سعدة خالد ؛ الذي تعتمد عليه في تصريف الأمور وهو شاب مثقف وصادق وأمين وموضع ثقة.

- أحسنت يا صادق والله أنت اسم على مسمى ، بارك الله فيك وكثر من أمثالك يا اخلص صديق ، الله يحبني ويريد لي الخير لأنك صاحبي وصديقي الوفي وهذه منة من الله أفاء بها على شياع ، الحمد لله ان لي أصدقاء مثل سماري وصادق، الحمد لله والشكر... كيف ماشي العمل يا أولاد؟

- عال العال ، كل شيء تمام التمام ، والبضاعة الجديدة التي وصلت لنا خلال هذا الأسبوع عليها طلبات عالية ولكننا ننتظر تسعير المواد... أستاذ شياع البضاعة: لا يوجد مثلها بسوق البصرة والعمارة والناصرية، تستطيع أن تضع السعر المناسب.

- لا... لا... حق الله يا إخوان، ربح بسيط مستمر خير من ربح سريع متقطع ، سمعت أبي عريب العُربة رحمه الله يعلم الحكمة لشيخ مزعل رحمه الله : شوف يا شيخ ، لو عندك حنفيتا ماء ؛ واحدة تصب الماء بقوة والثانية تصب الماء برفق في سطلين بنفس الحجم لتملأ خزانين بنفس الحجم أيضًا ستجد نفسك أنك ملأت أحد الخزانين من الحنفية التي تصب الماء برفق أسرع من الخزان الأخر من الحنفية التي تصب الماء بقوة لأن السطل في هذه الحالة سوف لا يتم ملؤه بالتمام ، وعند نقل السطل بسرعة سوف تخسر مزيدًا من الماء ولا يصل إلى الخزان سوى قليل من الماء... هذه حكمة التجارة كما قال أبي الحكيم، أهم شيء ديمومة الربح البسيط المستمر.

• • • •

اليوم جمعة، ورغم أنه عطلة؛ لكن شياع ذهب للمحل للمحاسبة والإطلاع، وغدًا السبت أهل فؤاد سيأتون لخطبة سعاد مساءً ولحد هذه الساعة شياع لا علم له بكل الأمور.

زينب تنتظر عودة شياع من المحل ربما خلال ساعة يعود، لأن اليوم جمعة وكل المحلات مقفلة، مازالت تكلّم نفسها، وإذا بشياع يدخل البيت يريد تغيير ملابسه والخروج مرة أخرى...

- خير؟

- اتفقت مع سماري أن نلتقي في المقهى لتصفية حساباتنا وأدخن أرجيلة.

- أرجوك لا تتأخر ، عندي كلام مهم أريد الحديث معك فيه.

- خير ... زينب إن شاء الله خير.

يخرج شياع على عجل ويلتقي مع سماري وتتم تصفية حساباتهما...

- أخي سماري، هدايا أختنا سعدة بقت عندك في السيارة.

- لا تقلق ، إنها في الحفظ والصون ، وسنرى طريقة لإيصالها إلى بغداد.

- والله نحتاج زيارة سعدة، تستاهل كل خير.

- والله ما تقوله يا شياع حق وواجب ، هذه أختنا وزوجة شيخنا مزعل ، ولمعلوماتك أرباح الحبوب التي يسلمها لنا سيد صادق كل شهر ليست قليلة ، كل هذا بفضل سعدة وتعاون أخيها خالد الذي يدير محل الشورجة لتجارة الحبوب والذي يفضّلنا على كل تجار الحبوب ويمنحنا الأسبقية وبأسعار أقل من الآخرين، وكل هذا بفضل سعدة لأنها تحبنا وتطلب ودنا وتتمنى لنا الخير.

- أخي سماري ، يجب أن نتفق على توحيد أسعار بيع المواد الصحية التي استوردناها.

- والله نِعمَ الرأي يا شياع ، شوف صرت تاجر ونص ، أنا ممنون منك يا شياع نبهتني على موضوع مهم.

- طيب أنا مضطر للعودة للبيت لأن أم سعاد عندها شغلة مهمة معي، الله أعلم يا سماري، مع السلامة.

شياع في البيت:

- ها زينب، خير؟

- إن شاء الله خير ، اجلس ارتاح وتناول العشاء واشرب قهوتك والكلام ما راح يطير.

- زينب ، الليل كله عشى... على راحتكِ ، عَمري لي أرجيلة لأني استعجلت وتركت أرجيلتي في القهوة على النص ، أنا جالس في الحديقة أعطوني صوندة [١] الماء لأرش الحديقة حتى تبرد، الجو حار ، زينب ترى إحنا في البصرة رحمة لو تشوفين جو الكويت والإمارات وقطر يقتل قتل ، حرارة عالية ومعها رطوبة تخنق خنق ، يعني الذي يتمشى على ساحل البحر حتى لو عند المساء الرطوبة وحرارة الجو تذبح ذبح سبحان الله والرمل يسفي في الشوارع وكل نخلة مسخريلها هندي يباريها مثل الطفل الرضيع ، لكن يا زينب حركة البناء والعمارات العالية والفنادق والمطاعم الفخمة لا

---

**(١) الصوندة : خرطوم الماء.**

تُعد ولا تحصى، والله هؤلاء البدو يتفهمون مصلحة بلدانهم أحسن منا ، تصوري بعشرين سنة طوروا بلدانهم وكأنها مئات السنين ، تتذكرين لما قدمنا من المشرح للبصرة قبل عدة سنين بقت البصرة على حالها لم يتطور فيها شيء يذكر، الله يطول عمرك مزهر الشاوي مدير الموانئ ومحافظ البصرة لاحقًا كيف طور مدينة البصرة خلال سنتين من العمل الجاد ، المهم غدًا ينتظرني عمل كبير ، يجب أن أجرد البضاعة الجديدة وأحدد الأسعار كما اتفقت مع أخي سماري... زينب ، ماذا عندكِ ؟ تعالي في الحديقة قولي ما عندك.

- لا... لا... في الليل في غرفة النوم.

- طيب على راحتكِ، كما تشائين.

ينهي شياع أرجيلته ويذهب إلى الغرفة للنوم تتبعه زوجته ، يتمددان على الفراش...

- شوف شياع ، سعاد جاءت لها قسمة ونصيب اليوم ، وغدًا مساءً يأتونك خطابة ، والبنت كبرت صار عمرها اثنتان وعشرين سنة ، نحن تزوجنا وأنا عمري ست عشرة سنة ، وهذا شاب ويشتغل بالبلدية مراقب واسمه فؤاد ، وأنا ما أعرف أهله ولا أصله ولا فصله...

- من ؟... من ؟... فؤاد مراقب البلدية ، هذا السربوت الساقط ، شقيق العاهرة أم نور التي بيتها مقابل محل سيد علي ، معقولة هذا يخطب بنتي سعاد ؟! الله أكبر ، الله أكبر... لا إله إلا الله ، هل تعرفين هذا الساقط إنسان مؤبون ، هو يحتاج له زوج وليس يتزوج ، كل المنطقة تعرفه ، هذا ليس رجل ، بل امرأة ساقطة مثل أخته العاهرة ، حتى هذه نور لا أحد يعرف بنت أي رجل من أصحابها وروادها في الليل... تعرفين المنطقة رافعين عليها مضبطة أخلاق ضروري تترك المنطقة... هذا الموضوع أغلقيه تمامًا ، وغير مسموح أن تتحدثي فيه أمام سعاد.

يشحب وجه زينب ، وينشف ريقها ، ويتوقف الكلام على شفتيها وتكاد تصرخ ، وتنهال الدموع من عينيها...

- ولكن... شياع

- ماذا تقصدين بـ ولكن ؟

- شياع ، أستحلفك بروح أبيك الفريضة أن تسمعني جيدًا وتعاهدني أن تسمعني للأخر ، وأن لا تتهور وتؤذيني ، وكن مثل أبيك حكيمًا متأنيًا في اتخاذ قرارك...

- قولي زينب ، خوفتِني.

- لا ، لن أقول إلا بعدما نتعاهد ونربط بيننا راية العباس أبو فاضل.

- طيب هذه راية العباس وشديناها.

- أمسك طرفها وأنا أمسك الطرف الثاني ، وأقسم قُل : والله وشفاعة العباس أبو فاضل والحسين ابا عبدالله الشهيد وحق فاطمة الزهراء وأهل البيت.

فيردد شياع القسم.

- قل: لا أؤذيكِ ولا أؤذي بنتي سعاد.

- والله وحق أهل البيت كلهم وراية العباس وروح عريب العُربة لا أؤذيكِ ولا أؤذي بنتي سعاد.

- شوف شياع ، مصيبة وحطت على رؤوسنا ، بنتك سعاد استدرجها فؤاد وأخته أم نور بحجة الزواج والحب وغدرا بها واعتديا عليها.

- يعني ضرباها أم ماذا؟

- أقول لك اعتدى عليها فؤاد بمساعدة أم نور في بيتها ، يعني فؤاد الساقط اغتصب بنتنا.

- الله أكبر... الله أكبر ماذا تقولين يا بنت الكلب؟

ويقفز من السرير بعد أن يدفع زينب ويسقطها من السرير ويركض باتجاه المطبخ يبحث عن السكين الكبيرة ، زينب تستجمع قواها وتقف في صدره...

- لقد أقسمت يا شياع وهذه راية العباس أن لا تؤذينا أنا وسعاد وأن تعالج الأمر بحكمة وهدوء.

- أي هدوء ؟ هذا شرفي ضاع ، من عَرَّفَ سعاد على فؤاد الوسخ هذا وأم نور الساقطة؟

- شابة مراهقة وغدرا بها المجرمان.

- سفلة، سأنتقم منهم شر انتقام، أنا لست ابن عريب العُربة إذا أبقيت منهم نفاخ النار.

- شياع ابن عمي، ولو أنك شتمت أبي؛ عمك؛ ولكن معذور ، أنت ابن عريب العُربة الكبير ، وتذكر وصية أبيك الحكيم رحمه الله إليك وهو يحتضر ألف رحمة ونور تنزل عليه في هذا اليوم الجمعة، لنعالج الأمر بروية وعقل، نزوج سعاد لمدة شهر أمام الناس وتبقى عندنا ونطلقها بعد الشهر بحجة أن فؤاد هذا لا يصلح زوجًا لابنتنا بعد أن عرفنا ماضيه ووضاعة أهله، ولا تعطيهم شيئًا ولا تعدهم بشيء، وأشرط عليهم ما تريد لنتجاوز الفضيحة.

- لا والله ، لا أضع يدي بأيدي هؤلاء السفلة واترك الناس تسخر مني وأنا ابن السوق والتاجر المعروف بالصدق والأمانة وابن الفريضة عريب العُربة، لا... وألف لا.

( ١١ )

شياع لا يستطيع النوم ، يذهب إلى المطبخ يجلس ، وزينب تراقب تحركاته خائفة منه، تأخذ المفاتيح وتقفل غرفة سعاد من الخارج ، ثم تستدرك الأمر ، تأخذ مخدتها وبطانيتها وتذهب لتنام مع ابنتها سعاد وتقفل باب الغرفة من الداخل ، وتحرك مكتب سعاد بهدوء قُرب الباب زيادة في الأمان.

شياع يرتب حقيبة ملابسه ويوقظ ابنته "نهى" ويقول لها:

- في الصباح أخبري أمكِ أني سافرت لأمرٍ مهم.

- نعم بابا... وهي بين اليقظة والنوم.

تسمع سعاد الكلام ، تستيقظ تفتح الباب وترى شياع وبيده حقيبته يَهمُّ بالخروج من البيت، تسأل

- خير إن شاء الله؟

- أنتِ وابنتك خليتوا خير؟ بصراحة لو أقدر أطلقك كان طلقتك من هذه الساعة بعد العَملة السودة، سوَّد الله وجهك ووجه بنتك، من اليوم لا أحب أشوفك ولا أشوف بنتك ، ولهذا مضطر أن أترككم فترة من الزمن.

- أين ستذهب؟

- أذهب إلى جهنم، مع السلامة.

يخرج من البيت ويذهب إلى العشار إلى فندق حمدان على نهر العشار مقابل المحافظة، في اليوم التالي يطلب من سيد صادق أن يجهز له بيتًا من بيوته التي يملكها في الحيانية، وأن يبحث عن امرأة كبيرة في السن نوعًا ما تخدمه وتحضر طعامه.

- خير إن شاء الله؟

- اطمئن سيد خير، خلاف بسيط بيني وبين زينب بسبب تربية الأولاد، كما أرجوك أن تذهب لسيد علي البقال ليقول لهذه العاهرة أم نور أن لا يأتوا لبيتنا مساء اليوم، وإذا جاءوا يحكمون على أنفسهم بالموت، مفهوم سيد؟

- أمرك شياع، ولكن ممكن أفهم أكثر؟

- سيد، بعدين أفهمك.

سعاد أكلها قليل جدًا رغم عناية أختها نهى بها، ينقص وزنها ولا تخرج من غرفتها إلا للحمام ولا تعتني بنفسها، أختها نهى تمشط شعرها وتغسل ثيابها وهي لا تعرف شيئًا عن مصيبة أختها سعاد.

زينب تفكّر وتقرر، تذهب إلى المحل تقابل شياع، شياع يشيح بوجهه عنها...

- خير زينب؟

- شياع، وفّر لنا سيارة وسائقًا أمينًا وموضع ثقة ليوصلنا إلى بغداد أنا وسعاد لزيارة سعدة زوجة شيخ مزعل، وأنت ارجع لبيتك وأولادك ونهى وأختها يخدمونك.

- طيب غدًا حضرا نفسيكما الساعة السادسة صباحًا على برد الوقت سافرا.

عكاب الذي كان يعمل في مضيف شيخ مزعل معه ومع حمود القهوجي أصبح سائق سيارة حمل يعمل عند شياع...

- أين عكاب؟
- في المقهى أستاذ.
- طيب، سأذهب للقهوة لأدخن أرجيلة.

في المقهى يطلب من عكاب أن يهيء السيارة البهبهان لينطلق صباح الغد في السادسة إلى بغداد لإيصال زينب وسعاد إلى سعدة في الكرادة داخل...

- عكاب، تعرف بيت شيخ مزعل؟
- نعم أستاذ شياع، في شارع اورزدي باك القديم رقم البيت ١٢٦ وعندي رقم التليفون، وأنا أعرف طرق بغداد وسبق أن زرت بيت شيخ مزعل عدة مرات، أستاذ نسيت نحن ثلاثة أيام بفاتحة شيخ مزعل في بيتهم.
- صحيح عكاب، المهم توصلهما، وترجع في اليوم التالي، لا ترجع بنفس اليوم، الجو حار جدًا تتعب أنت والسيارة.
- حاضر أستاذ.
- هذا مبلغ من المال اعطِه لزينب، وهذا مبلغ لك.
- لا أستاذ، أنا عندي.

- عكاب، اسمع كلامي أرجوك... والآن تذهب لفحص السيارة ثم تذهب إلى أستاذ سماري تأخذ منه هدايا سعدة لتسلمها لها.

- نعم أستاذ، مع السلامة.

- سوق على مهلك عكاب الطريق طويل ومتعب، واليوم نام من وقت، مع السلامة.

الساعة السادسة صباحًا يقف عكاب بسيارته البهبهان في باب بيت شياع ويحمل الحقائب والهدايا ومتاع [1] الطريق... تسأله زينب :

- لمن هذه الحاجات في صندوق السيارة؟

- إنها هدايا إلى سعدة من سماري وشياع من الخليج.

- عاشت يدك عكاب، توكل على الله.

ينطلق عكاب ينهب الطريق السريع، وخلال ساعتين يصل العمارة، فيأخذهما إلى مطعم على الكورنيش يعرفه في مكان مخصص للعوائل، ويطلب ثلاث نفرات كباب مع طماطة شوي وخبز تنور وقوري شاي [2]... يفطران، وعكاب يفطر في الجانب الآخر من المطعم، ثم يركبون السيارة وينطلقون باتجاه بغداد حتى يصلوا علي الغربي، عكاب يوقف السيارة

---

**(١) المتاع : طعام السفر.**

**(٢) قوري شاي : براد شاي.**

أمام مطعم كبير ، زينب وسعاد لا تغادران السيارة ، فيجلب عكاب لهما كاسات من الخاثر ، ويشتري إلى بيت سعدة صينية من القيمر [1] المشهور به قضاء علي الغربي ، ثم يواصلون الطريق.

الجو عند الظهيرة حار جدًا لكن السيارة تبريدها جيد جدًا... في تمام الساعة الواحدة والنصف تقف السيارة عند باب بيت سعدة التي تفتح الباب فتجد أمامها زينب وسعاد ، تقبِّلهما وترحب بهما... زينب تقول:

- مفاجأة.

فترد سعدة:

- لا والله ، شياع خابرني الساعة العاشرة صباح هذا اليوم ، وكان الوقت كافيًا لإعداد طعام الغداء... يا أهلاً ويا وسهلاً بالحبايب ريحة أهلنا ، ذكريات وعيشة المشرح ، ليتنا بقينا على ذلك الزمان ، الدهر شتتنا يا زينب... ماء شاء الله سعاد عروس الله يهنئك بها... استريحوا في الهول ، الحمام في الجهة اليمنى، يوجد في البيت حمامان... عكاب أخي استرح.

- أنا أعطوني قدح ماء ، ومع السلامة.

---

**(١) القيمر : القشطة.**

- لا وروح زامل ترتاح بغرفة الضيوف وتتغدى ، أنت أخونا عكاب ، أنت ابن شيخ زامل ، لو نسيت أنت كنت عايش بمضيفه.

- شيخ مزعل الله يرحمه حقًا أبي، هو الذي ربَّاني وعلمني.

- إذن تسمع كلام أمك سعدة.

- حاضر... حاضر خاتون.

عكاب يسلم هديا سماري وشياع، وزينب تسلم هداياها...

- معقول نصف حمل السيارة هدايا؟

فترد زينب:

- خيرنا خيركم.

- الله يزيد ويبارك.

يتناولون الغداء، سعدة وزينب وسعاد في المطبخ، وعكاب في غرفة الضيوف ، ويشربون الشاي ، ويتوكل عكاب على الله ويستأذن من سعدة.

- عكاب، متى ترجع للبصرة؟

- خاتون ، غدًا من الفجر ، عندنا عمل كثير ، شياع ينتظرني ، يعني ليس هناك وقت لشراء هدايا، مع السلامة خاتون.

تجلس زينب وسعاد مع سعدة وتعاد ذكريات المشرح، وتلاحظ سعدة مسحة الحزن على وجه سعاد فتسألها،:

- ما بكِ يا ابنتي؟

فتجيب زينب:

- إنها مريضة، وهي بحاجة إلى طبيب أخصائي هنا في بغداد.

- خير إن شاء الله؟

- سأشرح لكِ الموضوع لاحقًا.

- طيب ارتاحا، هذه غرفتك مع سعاد، وهذا الحمام لكما، وهذه مناشف جديدة ونعالات جديدة، وأي شيء تحتاجانه أنا حاضرة، أنتم أهلي على راسي وبعيوني وشياع ابني، والله ابني الصدق.

• • • •

يصل عكاب ظهر اليوم التالي ويركن السيارة قُرب المحل، ويسلّم على شياع:

- حمدًا لله على سلامتك.

- شكرًا أستاذ.

- اذهب ارتاح في بيتك وعندي شغل خاص معك في الليل، نلتقي الساعة الثامنة في العشار في كازينو ١٤ تموز نشرب أرجيلة.

- حاضر أستاذ.

يلتقي شياع وعكاب، ويطلب كل واحد الأرجيلة التي يحبها، وبعد أن يسحب شياع نفسين عميقين من الأرجيلة...

- اسمعني جيدًا عكاب ، أنا اعتمد كثيرًا عليك لأنك أخي المخلص الأمين، تعرف فؤاد مراقب البلدية؟

- تقصد هذا الخنيث الساقط؟

- نعم هو بالضبط، هذا يلتقي بمقهى أبو حسن يوميًا ويركب وينزل من الباص في منطقة الباص المقابلة للمقهى ، هذا الحقير يسبِّب إزعاجًا لابنتي ست سعاد ، يعني سعاد شكت لأمها من متابعته لها والتحرش بها يعني يعاكسها ، وقد أقسمتُ بروح أبي أن أقتله ، وأريدك أن تساعدني في هذه المهمة.

- أخي شياع روحي فداك، ولكن كيف؟

- تدهسه في سيارة الحمل ، أريد ضربة قاضية تقضي عليه وتخلصنا من شره.

- والله يا أستاذ شياع هذا يستاهل القتل، أكسب به ثواب وأدخل الجنة.

- اتفقنا، وأنا كفيل بكل شيء، وأنت تعرفني قولاً وفعلاً.

- أنت أخي وما قصرت معي، لحم كتافي من خيرك.

- إذن توكل على الله غدًا ، واترك الأمور على أخيك شياع يدبرها.

- حاضر ، لا تهتم أنا في خدمتك.

عكاب لا يعرف موعد وصول فؤاد بالضبط صباح كل يوم ولكنه يعرف أنه يوميًا يترك المقهى بين الساعة الثانية عشرة

لغاية الساعة الثانية عشرة ونصف ظهرًا متوجهًا لمنطقة الباص.

عكاب يكمن بسيارة الحمل إلى فؤاد ولحظة خروجه من المقهى يتحرك عكاب من على بعد ويزيد بسرعة السيارة ، وحال توسط فؤاد منتصف الشارع يضربه بمقدمة السيارة ضربة قاضية يطير في الهواء ويسقط أمام السارة فيدهسه بعجلات السيارة ، ويقف بعد مسافة بحجة أن البريك حصل به عطل فجائي الظاهر بسبب تسرب زيت البريك.

يتجمع الناس ، وفؤاد ممدد في الشارع مضرج بالدماء ، وبعد دقائق يوضع في بطانية ويتبرع أحد عمال شياع لأخذه في سيارة البيك اب إلى المستشفى في أخر نفس.

ام نور أخت فؤاد تهرع لمكان الحادث مستفسرة ، فيقولون لها إن فؤاد دهسته سيارة ونقلوه إلى المستشفى ، فيتبرع أحد الواقفين بأن يعرض عليها اصطحابها إلى المستشفى تقربًا منها لأنه يعرف من هي أم نور.

الشرطة تلقي القبض على عكاب ، ويجرى تحقيق عاجل بالموضوع وتُسحب السيارة إلى كراج مركز الشرطة القريب ، فيأمر قاضي التحقيق بمتابعة تقرير المستشفى وإجراء الفحص على سيارة الحمل المرقم ٢٦٩٢١ بص لوري حمل رقم

الشاصي ٤٦٧٣٢٩٤٥٨٧٢ cl ورقم المحرك CC'd 624597213 لونها أزرق نوع اسكانيا.

نتيجة فحص السيارة من البراد المختص وجود تسريب من عنابر البريك بسبب تلف وأشر إحكام عنبار دهن البريك.

يثبت ذلك في محضر التحقيق.

يكلف شياع محامي دفاع مشهور يحضر التحقيق ويلقن عكاب في النظارة ماذا يقول قبل بدء التحقيق.

تقدَّم الشرطة تقرير البراد المختص أعلاه وتقرير المستشفى أن المريض وضعه خطر جدًا ( فطر في الجمجمة ونزف حاد في الدماغ ، وثمانية أضلاع مكسورة مع تهتك بالكبد والطحال وكسور ورضوض في الحوض واليدين والساقين ) ، انتظار ٢٤ ساعة ويوضع المريض في العناية المركزة.

المحامي يخبر شياع أن عكاب سيظل موقوفًا طالما فؤاد في المستشفى، فيقلق شياع من ذلك.

في صباح اليوم التالي ينتشر في المحلة خبر وفاة فؤاد.

يقدِّم المحامي طلب استرحام إلى عكاب فيُطلق سراحه بكفالة، وينصح المحامي شياع بإرضاء أهل فؤاد بفصل مجزي حتى يتنازلوا عن حقهم ويبقى فقط الحق العام.

شياع يكلّف سماري وسيد صادق للقيام بمهمة الفصل حتى يكون هو بعيد عن الموضوع ، أهل فؤاد طمَّاعين ودينهم ومذهبهم الفلوس.

يأتي من المشرح شيخ خزعل شقيق شيخ زامل والسيد وعدد من وجهاء عشيرتهم إلى البصرة من المشرح ومعهم سماري وسيد صادق ويذهبون لبيت أهل فؤاد بعد انتهاء الثالث ورفع مجلس العزاء ، ويتم الفصل برضا الطرفين ، ويذهب أبو فؤاد صباح اليوم التالي مع المحامي ويقدم تنازل كما كتبه له المحامي.

المحامي يقول إلى عكاب:

- يبقى الحق العام ، بسيطة لأن تقرير البراد المختص في صالحنا ربما تعتبر قضاء وقدر بسبب عطل ميكانيكي مفاجئ، المهم الله كريم أنت حاليًا حُر ، الله معك.
- شكرًا أستاذ ممنونين منك.

أم نور تشك بالموضوع لأن شياع رفض زيارتهم لخطبة سعاد لفؤاد وأن عكاب يعمل سائقًا عند شياع ، ولربما شياع قرر الانتقام من فؤاد على فعلته مع ابنته ، لكن حصتها من فلوس الفصل أخرسها وتركت الموضوع خوفًا على نفسها.

انتهت قصة فؤاد وارتاح شياع نوعًا ما نفسيًا ، وشكر عكاب على فضله الذي لن ينساه، وقال له:

- نصف ثمن لوري الحمل متنازل عنه والنصف الثاني تدفعه بالأقساط من عملك ، كذلك البيت الذي تسكنه نصف الثمن لك والنصف الثاني تدفعه أيضًا بالأقساط المريحة.

فرح عكاب غاية الفرح ، أصبح يملك شيئًا في هذه الدنيا ، ما هي إلا ثلاث سنين من العمل الجاد إذا الله سهل ويصبح يملك بيتًا وسيارة حمل نوع سكانيا من النوع الفاخر ، عكاب أصبح ملاكًا.

## (١٢)

نعود الآن إلى زينب وسعاد وسعدة في بغداد العاصمة:

ترتاح زينب وسعاد عند سعدة يوم الوصول ، وسعدة في غاية السعادة والفرح... تزورهن نوال زوجة أخيها خالد القريب من دارهم نوعًا ما ، تسكن أيضًا في الكرادة داخل ولكن قرب جامع سيد إدريس ، وفي صباح اليوم التالي تأتي نوال وتأخذ زينب وسعاد لزيارة جامع سيد إدريس للتبرك وطلب المراد ، سعدة لا ترافقهن بسبب انشغالها بإعداد طعام الغداء ولأن رُكبتها اليمنى ليست على ما يرام فلا تستطيع مشي مسافة نوعًا ما طويلة ، سعدة تؤكد على نوال: الغداء هنا عندي في بيتي.

بعد الزيارة يقمنَّ بجولة في أسواق الكرادة العامرة ، زينب بودها شراء بدلة جميلة وحذاء إلى سعاد على ذوقها ولكنها تقول مع نفسها : لا تستاهل الهدية هذه الغبية ، وسعاد صامتة سارحة الدنيا كلها ليس في عينها ، كل هذه المحلات ، كل هذه الإنارة وسعاد ترى الدنيا ظلمة والناس كأنها حيوانات سارحة في أرض الله وتنظر لكل الرجال باشمئزاز ، حتى خالد شقيق سعدة عندما سلَّم عليها ردت عليه ببرود ، لا تريد التعرف بأي رجل مهما كان حتى ولو كان قريبًا.

في طريق عودتهن وزينب منبهرة بجمال الشارع، نوال تقول لهن لنشرب من جبار أبو الشربت المشهور شربت الرمان، زينب تقول: الله، الله ما أطيبه، لكن سعاد فمها فيه مرارة تشرب رشفة واحدة وتهز رأسها وتترك قدح الشربت تكمله عنها أمها زينب: سعاد هذا الشربت الطيب والدنيا حارة والناس واقفة بالطابور، والله يا سعاد أنت بطرانة.

يعودنَّ للبيت، وتُفرش سفرة الطعام ويتناولنَّ الغداء ويشربنَّ الشاي، ثم تعود نوال لبيتها لإعداد الغداء لزوجها خالد، وترتاح زينب وسعاد في الغرفة المخصصة لهما.

عند المساء عادةً تزدحم شوارع الكرادة بالناس؛ الروّاد والمتسوقين ومراجعي الأطباء الاختصاصين والصاغة ومعروضاتهم الراقية من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة والألماس. تدخل زينب وسعاد إلى الصيدلية لشراء باراسيتول لأن سعاد رأسها يؤلمها ويحصل حديث بين الصيدلانية عائدة وسعاد التي تستلطفها وتسألها:

- أنتم من أين؟ لأول مرة أراكِ.

- نحن من أهل البصرة.

- يا أهلاً وسهلاً بأهل البصرة الطيبين الكرام، أنا أصلي بصراوية من محلة الكزارة، أحلى مناطق البصرة، يا عيني على البصرة، قسمة الزواج أتت بي إلى بغداد، ورغم جمال

بغداد لكن عندي البصرة أحلى ، أرتاح فيها نفسيًا مع أهلها الطيبين.

يوم بعد يوم تتوثق العلاقة بين عائدة وزينب وسعاد ، زينب تسألها عن طبيبة أخصائية بأمراض النساء، فتجيبها عائدة :

- الطبيبات في الكرادة كثيرات، يجب أن تشرحي لي خالة نوع المرض لأدلك على الدكتورة المختصة التي تفيدك.

- أختك سعاد العادة الشهرية عندها مخربطة ، يعني مو مضبوطة.

- خالة هذه شغلة بسيطة، أنا أحجز لسعاد متى ما تحبي.

تتجرأ زينب فتقول:

- خالة، في الحقيقة ابنتي سعاد تعرضت لحادث اغتصاب في البصرة من قبل شاب كانت تحبه ووعدها بالزواج ولكن مع الأسف غدر بها، إذا تقدري تساعديني أنا ممنونة منكِ.

- خالة ، أنا أحببتكما ، ولكن هذه شغلة كبيرة وفيها مسؤولية ، ولكن الله كريم، اعطِني فرصة أرتب الأمور.

- خالة عائدة، لا أحب إحراجك يا ابنتي ، هذه سعاد مثل أختك لا تقصرين بمساعدتها، الله يظلم الذي ظلمها.

نظرت عائدة إلى سعاد ورأت الدموع في عينيها ووجها يعبِّر ترجوها أن تساعدها وتكتم السر.

في صباح اليوم التالي زارت زينب وسعاد صيدلية عائدة فرحبت بهما، وعادةً الصيدلية في الصباح تكون قليلة الزبائن لأن الأطباء يفتحون عياداتهم في المساء بعد الدوام الرسمي لأن معظمهم يعملون في المستشفيات.

عائدة تكلّم سعاد:

- هنا في الشارع العام توجد طبيبة مصرية شاطرة متخصصة اسمها "فوزية حمدي" أعرف أنها تقوم بمثل هذه العمليات ولكن بالسر وبحدود ضيقة جدًا وبعد أن تثق بالمراجع وبعلم أهله وموافقتهم.
- طيب، والحل في مثل حالتنا؟
- دعوني أحاول معها، لكنها تطلب سعرًا غاليًا.
- لا تهتمي للفلوس، الحمد لله نحن بخير من هذه الناحية.
- طيب خالة، أعطوني مجالاً، لكن لا أحب ذكر اسمي إطلاقًا، إنها المرة الأولى والأخيرة.

زينب تقول لعائدة:

- ربي يسِّر ولا تعسِّر، فرجها على سعاد يا الله...خالة عائده أنا مدانة لك العمر كله يا ابنتي إذا أنقذتِ سعاد من هذه الورطة.
- تدللي خالة، المسألة تحتاج شوية صبر وكتمان.

اليوم جمعة، نوال وزوجها خالد مدعوان على غداء عند سعدة، وعلى سفرة الغداء اتفق الجميع على زيارة الإمام الكاظم في الكاظمية للتبرك والدعاء.

الساعة السادسة مساءً وعلى برد الوقت انطلق الجميع إلى الكاظمية، بداية ذهبوا إلى الأعظمية وزاروا المقبرة الملكية، خالد يكلم سعاد:

- يا سعاد...
- نعم أستاذ خالد.
- هذه كليات جامعة بغداد موزعة بين منطقة الوزيرية والكسرة وباب المعظم والأعظمية، وهنا كان دار المعلمين العالية الذي تخرج منه معظم الأساتذة والأدباء والشعراء، الآن أصبحت لدينا كلية اللغات وكلية الآداب وكلية العلوم والطب والهندسة. كثيرة هي الكليات، هذا بفضل الزعيم عبد الكريم قاسم الذي أمر بإنشاء جامعة بغداد، وبفضل مؤسس الجامعة الدكتور العالم عبد الجبار عبدالله من إخواننا الصابئة... والآن نذهب إلى كورنيش الأعظمية لنتفرج على أنواع الطيور وعلى نهر دجلة الخالد، بعدها نذهب للزيارة، بعد عبور جسر الأئمة سنكون بالكاظم.

بعد دقائق معدودة وصلوا الكاظم وركنوا السيارة في الكراج، المنطقة مزدحمة جدًا والأسواق عامرة ومحلات الصاغة

الزاهية بالإنارة والمعروضات الذهبية البراقة التي تعكس ضوء الانارة أبهر زينب وسعاد ، ولكن الزيارة أهم ، دخل الجميع صحن الجامع وتوجهوا لضريح الإمام ، وزينب وضعت سعاد أمامها ممسكة بها من شدة الازدحام وتدافع الناس ومسكت بشباك ضريح الكاظم بقوة وبنتها في حضنها وهي تدعو وتتضرع للإمام أن يشفع لسعاد ويساعدها في تخطي محنتها وترمي شيئًا من النقود داخل الضريح، وتشتري لها ولسعاد شريطًا أخضر من أحد رجال الدين الذي يقرأ أدعية على رأس سعاد، فتعطيه سعدة دينارًا واحدًا.

يعودون بعدها إلى البيت ، ويودّعون خالد وزوجته عائدة ويشكرونهما على هذه الأمسية الجميلة.

يوم السبت يأتي خالد بالمسواق إلى أخته سعدة حسب وصيتها قبل ذهابه لمحل تجارة الحبوب في الشورجة الذي تملكه سعدة ويديره خالد بكل أمانة وإخلاص، سعدة تقول لزينب:

- على فكرة، شياع قال لي أعطيكِ كل ما تحتاجينه من فلوس من الحساب ، وأنتِ يا زينب اطلبي ما تشائين ، الحلال حلالكم.

- عندي ما يكفي وزيادة، شكرًا يا سعدة.

عند المساء زينب وسعاد تتمشيان في الشارع أمام الصيدلية، فتشاهدهما عائدة وتخرج من الصيدلية تؤشر لهما، فيقتربان منها...

- خالة زينب، اتفقت مع دكتورة فوزية على كل شيء، واليوم الساعة السادسة والنصف مساءً لدى سعاد موعد فحص، أي بعد ساعة، والدكتورة ستشرح لكما كل الأمور، إن شاء الله خير.
- الله يبشركَ بالخير يا عائدة.
- والله خالة كنت محتارة كيف أبلغكما بالموعد، لكن الله فرجها.

الساعة السادسة والنصف مساءً زينب وسعاد في غرفة الفحص تتعرفان على دكتورة فوزية:

- تفضلي سعاد على سرير الفحص... كل شيء تمام، يوم الاثنين الساعة الثالثة مساءً موعد العملية تأتين مع أمكِ فقط.

اصفر وجه سعاد.

- لا تخافي يا سعاد العملية بسيطة وبنج موضعي وقت العملية لا يستغرق أكثر من ربع ساعة، تكلفة العملية مئة دينار تُدفع مقدمة اليوم أو الاثنين؟

زينب تفتح حقيبتها وتحسب مائة دينار وتسلمها إلى الطبيبة.

- هذا الموضوع يحتاج إلى كتمان وسرية تامة وعدم التحدث به أمام أقرب الناس، مفهوم ست زينب؟

- نعم دكتورة مفهوم.

- وأنتِ يا سعاد، مفهوم؟

- نعم دكتورة مفهوم.

- طيب توكلا على الله، مع السلامة.

زينب فرحانة وسعاد خائفة...

- يا رحمة الله الواسعة، ربي نحن من أهل الله ما نستاهل كل هذا العذاب والبهدلة، الله يجبر بخاطرك يا سعاد يا بنت زينب.

• • • •

سعدة تكلم زينب:

- اتفقت مع خالد وعائدة مساء الاثنين نذهب سوية إلى مدينة الألعاب.

ترد زينب فورًا:

- لا... لا... الاثنين عندنا موعد طبيب، سعاد دورتها مخربطة وتسبب لها بين الحين والحين مغصًا في بطنها وحجزنا لها عند دكتورة أخصائية في الشارع.

- هل تعرفونها؟

- لا، ولكن اليافطة تقول إنها أخصائية وخريجة لندن وعليها ازدحام من المراجعين والقضية بسيطة.

- طيب بعد ما ترجعون من الطبيبة نروح.

- لا ، أرجوكِ يا سعدة أجليها إلى وقت آخر.

- على راحتكم.

يوم الاثنين في تمام الساعة الثالثة تجرى عملية الترقيع إلى سعاد، الدكتورة تقول لها:

- مبروك ، أنتِ الآن بنت بنوت ، ثلاثة أيام راحة تامة في الفراش، وهذه روشتة دواء، واحد للآلام عند الحاجة وواحد للالتهابات وواحد للتعقيم ثلاث مرات في اليوم، ارتاحي في غرفة الانتظار وتوكلي على الله ، أشوفك الاثنين القادم الساعة السادسة مساءً ، اطمئني العملية ناجحة مئة بالمئة والخيوط تذوب لحالها بعد الالتئام.

زينب تسمع كل هذا الكلام وتكاد تطير من الفرح رغم الغصة في نفسها وقلبها ، وسعاد مازالت تعيش في عالم آخر وقد ضاعت كل آمالها وأحلامها وانكسر قلبها وتحطمت نفسيتها: آه يلزمن ما لكَ أمان، حولتني من فتاة شابة تعشق الحياة وتحلم بالسعادة وكأنها عثرت على كنز ثمين إلى عجوز بلا مشاعر وبلا أحاسيس، كم كنت أعشق جسمي وأتباهى به مع نفسي وأصبحت اليوم لا أطيق رؤيته والتمتع بجماله ورشاقته، آه يلزمن ظلمتني دون أن أقترف أي ذنب في حياتي، والله لولا أن قتل النفس حرام لقتلت نفسي وأنهيت حياتي، ما قيمة الحياة إذا كان الإنسان تعيسًا، وأنا تعيسة ومحطمة.

تعود زينب وسعاد لبيت سعدة ، وفِي طريقهما تسلمان على عائدة في الصيدلية ويطمئناها أن العملية نجحت مئة بالمئة ويطلبان منها أن تحضر لهما الأدوية... وعلى الفور تحضر الأدوية وتشرح لسعاد استعمالها مع ضرورة الراحة التامة والتقيد بمواعيد الدواء وتوصيات الدكتورة، ولا تقبل أخذ ثمن الدواء رغم إلحاح زينب عليها، تقول: هذه هدية مني إلى أختي سعاد أرجو أن نتواصل ، كلنا من أهل البصرة المعروفين بطيبتهم وكرمهم.

تستقبلهما سعدة في البيت:

- إن شاء الله خير.

فترد زينب:

- أنت يا سعدة كلكَ خير وبركة، أعطت الدكتورة العلاج اللازم لسعاد وقالت لها راحة تامة ثلاثة أيام.
- ما اسم الدكتورة؟
- نسيت اسمها ، الطبيبات كثيرات في الكرادة واليفطات متشابكة، وطبيبتنا إنسانة طيبة الحمد لله... ماما، سعاد أنتِ ارتاحي وأنا أعمل لك شوربة باللحم أضع فيها أنواعًا من الخضروات.

سعاد تتمدد على السرير وعيونها مركزة في سقف الغرفة وفكرها سارح، فتشاهد خيال فؤاد وهو مضرج بدمه، فينتابها

شعور بالخوف و رعشة خفيفة تهز جسمها ، ولكنها تستجمع تفكيرها وتركيزها : فعلاً من ظَلَمَ يُظلَم ولو بعد حين، ضرجتني بالدم متعمدًا باستباحة جسدي يا كافر يا مجرم ، غدرت بيَّ يا كلب يا ابن الكلب وجرحت قلبي ووجداني وحطمت نفسيتي، يا لكَ من حقير لم يحسن أهلك تربيتك ، معقول أنا غبية إلى هذا الحد لم أفهم تجاوزات فؤاد في الباص وكيف أنسى يوم تجاسر ومد يده تحت التنورة ومسك فخذي ، كيف لم أتف في وجههِ وأقاطعه من ذلك اليوم ، لماذا لم أنتبه وهو يلتصق بي في الباص ويتعمد وخز نهديَّ بعكسه ، كيف طاوعتُه وجئت لبيت أخته لوحدي ، الظاهر نسيتِ يا سعاد ِحكَم جدك الفريضة عريب العُربة عندما قال : ما اختلى رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ، أم نسيتِ كلام ست ماري المعلمة القديرة وهي تقول : لا يمكن لفتاة شريفة بنت ناس باكر تذهب لبيت عازب مهما كان السبب... ثم لماذا لم تستشيري أمك صديقتك أيتها الغبرة المتخلفة ، فعلاً متخلفة أنا حقًا متخلفة... كل أهل المنطقة يعرفون من هو فؤاد ومن هم أهل فؤاد الساقطين إلا ست سعاد المعلمة المتعلمة التي يجب أن تعرف عن أهل المحلة أكثر من أبيها وأمها بحكم احتكاكها يوميًا بالطالبات والمعلمات، المشكلة كما تقول أمي معلمة تعلم بنات الناس والله غبية ما عرفت تعلم نفسها وما عرفت تتعلم شيئًا من الحياة ولا من الناس، غبية والله غبية، لماذا لم تسألي مَنْ فؤاد هذا وَمَنْ أم

نور هذه، على الأقل اسحبي الكلام من الطالبة نور أسأليها مَنْ أبوكِ؟ ماذا يعمل؟، طيب اسألي سيد علي البقال و أنتِ تشترين منه الدفاتر والأقلام وبعض حاجات البيت وهو يحب أباكِ ويقدر العائلة، معقول وصل بك الغباء إلى هذا الحد فضيعتِ نفسك وجنيتِ حتى على فؤاد، ولكنه يستاهل الموت السافل المنحط الله لا يرحمه ولا يحسن إليه المجرم الحقير، وهذه الساقطة أم نور كون أشوف بها يوم هذه الكلبة الحقيرة السافلة... يا رب أنت ما تقصر، أنا كنت اسمع من جدي وهو يعظ الناس أن الله يمهل ولا يهمل، الحمد لله على كل حال والشكر له ربي ورب الناس.

تمر الثلاثة أيام وسعدة وزينب تتابعان صحة سعاد تتحسن، وفِي اليوم الرابع تدخل سعاد الحمام وكأنها الجماد، ذهب ذلك الإحساس والشعور، وذبل جسمها قليلاً، وفقدت ذلك القلب النابض بالحب وتحول إلى مجرد مضخة تضخ الدم من أجل ديمومة الحياة، وذهب ذلك الشعور الفياض، وضاعت كل الآمال وتبددت كل الأحلام، تفتح الدوش لتستحم وهي خائفة وجله تخاف أن تقرب يديها من المنطقة الحساسة، غسلت جسدها فقط بالصابون وبكل هدوء ورقة، وخرجت وخطت بعض الخطوات في الهول... سعدة وزينب بصوت واحد، الحمد لله على سلامتك سعاد.

سعاد لا تخرج من البيت، تنتظر موعد الدكتورة، عائدة تعتقد أنها وأمها زينب ربما عادتا إلى البصرة، لكنها شاهدتهما في اليوم التالي عائدتين من عيادة الدكتورة فوزية وهما فرحتان وابتسامة عريضة على وجه زينب، ومعهما هدية زنجيل كارتير وآية الكرسي هدية إلى عائدة بعلبة فاخرة من القطيفة الحمراء المذهبة...

- الحمد لله على سلامتك سعاد.

تبادلها زينب:

- بنتي عائدة إننا عاجزتان عن الشكر، وهذه هدية بسيطة للذكرى، وإذا زرتِ البصرة أصبح لكِ أهل هناك.

تتقبل عائدة الهدية، وتفكّر بشراء هدية إلى سعاد، وتقبلهما، وتسأل سعاد:

- إن شاء الله الأمور على ما يرام؟

فترد زينب:

- طمئنتنا الدكتورة أن كل شيء على ما يرام، وأن سعاد عادت بنت بنوت باكر كما كانت، وحذرتها من ركوب الدراجة الهوائية ولعب حركات سويدية قوية لمدة أسبوعين، وهي أصلاً لا تركب دراجة ولا تلعب رياضة.

اتصلت زينب بالهاتف بزوجها شياع وطلبت منه أن يرسل لهما عكاب ليعودا يوم الجمعة للبصرة ، فتأخذ سعدة الهاتف منها وتكلم شياع:

- شياع، لماذا لا تأتي إلى بغداد كم يوم؟

فيعتذر منها:

- إن شاء الله فرصة ثانية.

- طيب شياع، راح أبقيهم معي بعد أسبوع.

زينب تأخذ الهاتف من سعدة:

- شياع، خلي عكاب يأتي لنا يوم الأحد.

- صار.. صار، راح أبعث لكم تمرًا من البصرة إلى بيت سعدة وبيت خالد... مع السلامة.

## (١٣)

صباح الجمعة تأتي البنت نور مع جدتها إلى بيت ابنتها أم نور فتجد هرجًا ومرجًا في الشارع وشرطة وسيارة اسعاف، تسأل سيد علي البقال:

- خير إن شاء الله؟

- أي خير يا قحاب بنات القحاب، البارحة في منتصف الليل جاء عشيق ابنتك سكران إلى أم نور وفتح باب البيت بالمفتاح الذي عنده فوجدها نائمة عارية مع رجل عارٍ، فأخرج مسدسه ورمى الاثنين، وعشيقها الآخر أيضًا عنده مسدس تحت الوسادة أخرجه ورمى، المهم موظف الإسعاف يقول أحدهما مات والآخر يحتضر.

- وأم نور سيد؟

- أسالي موظف الإسعاف.

- خالة، أم نور أين؟

- من أم نور؟

- أم البيت هذا.

- الله يرحمها، الطلقة جاءت في قلبها.

صرخت الجدة ووقعت مغشيًا عليها.

سيد علي يقول:
- الله خلصنا من هذه الزمرة التعبانة.

ثم يتكلم مع صديقه أبي مازن صاحب البيت المؤجر إلى أم نور والتي رفضت أم نور كل هذه السنين أخلاء الدار لأن القانون يحمي المؤجرين:
- يا أخي استلم بيتك وأجره إلى ناس أشراف الله يرضى عليك.

يسمع شياع بالحادث فترتاح نفسيته ويقول مع نفسه: الله ما قصر، الحمد لله والشكر، نحمده ونشكره ونستعين به.

• • • •

يتحرك عكاب بسيارة البهبهان يوم الأحد ومعه صفيحتان من تمر البصرة الفاخر وصفيحة دبس مجرش من دبس الفاو، يصل إلى بغداد على راحته الساعة الثانية ظهرًا ويذهب إلى أقربائهِ في مدينة الثورة ويتصل بالهاتف بسعدة ويسلم عليها ويخبرها أنه سيكون عندهم قُرب الدار في الغد عند الساعة السادسة صباحًا.

في الكرادة، تستعد زينب وسعاد لترتيب حاجاتهما ورزم الحقائب وهدايا سعدة، وتلبس سعاد هدية عائدة ساعة يدوية جميلة، وفِي المساء يأتي خالد وزوجته نوال ويتفقون للذهاب إلى مدينة الألعاب، زينب وسعاد لأول مرة تشاهدان مثل هذه الألعاب الجميلة، قسم منها مخيف... يجلسون في الكازينو

ويطلبون العصائر والآيس كريم ويتناولون بعدها العشاء؛ كبة الموصل الشهيرة، وتشتري زينب هدايا لأولادها إضافة للهدايا التي اشترتها من الكرادة، ولا تنسى أن تشتري لشياع مصحفًا مذهبًا ودشداشة وقميصًا ورباطًا من النوع الجيد المستورد.

عند التاسعة يعود الجميع للبيت، وتودع نوال زينب وسعاد وتقبِّلهما، وتدعو لهما بسلامة الوصول.

في تمام الساعة السادسة صباحًا يوم الأحد يقف عكاب بسيارة البهبهان البيضاء بباب بيت سعدة في الكرادة داخل، دق جرس الباب ففتحت سعدة:

- أهلاً وسهلا عكاب، تفضل أفطر معنا.

- عمة، الدنيا حارة والوقت ليس بصالحنا، أحب أن نصل إلى البصرة مع موعد الغداء.

في هذه الأثناء خرجت زينب وسعاد ومعهما الحقائب، فيتلقفها منهم عكاب.

- أهلاً عكاب.

- الله يخليكِ خاتون زينب.

- أهلاً عكاب.

- الله يخليكِ ست سعاد، تفضلا بالسيارة فاتح التبريد، كل شيء تمام خاتون؟

- كل شيء تمام عكاب.

- دقيقة أنزل صفائح التمر وصفيحة الدبس، وأرزم الحقائب... عمة سعدة، هذه صفيحة تمر برحي وصفيحة دبس الفاو من أستاذ شياع لكِ، وهذه صفيحة تمر برحي إلى أستاذ خالد مع سلام من أستاذ شياع... أين أضعهما عمة؟

- عكاب ابني ضع الصفائح تحت السلم.

- حاضر عمة.

يتأكد عكاب من الجنط ويسأل زينب:

- خاتون، متأكدين ما ناسين شيء؟

- عكاب توكل على الله.

تتحرك السيارة وسعدة ترش خلفهم طاسة ماء... (عادة متبعة في العراق لطرد الشر).

بعد ساعتين يصلون الكوت، فتقول زينب:

- عكاب دعنا نزور الكوت ونفطر في مطعم محترم.

دخل شياع الكوت ولاحظ مطعمًا عائليًا قرب سوق الخضار فيقف وينزل الجميع، ويطلب عكاب طبق قيمر السدة وعسل أصلي وصمون حار وقوري شاي، تملأ زينب صمونة بكاملها قيمر وعسل وتصب استكان شاي إلى عكاب يأخذها ويجلس في ركن المطعم، عكاب يقول:

- زينب خاتون، إذا عجبكم القيمر اشتري صينية نأخذها معنا وكمية من العسل والجبن.

- نعم عكاب.

خلال دقائق يعود عكاب محملاً بالمواد... يركبون السيارة وما هي إلا ساعتين ويصلون العمارة، فيسألها عكاب:

- خاتون زينب، هل أنتم جوعانين أو تعبانين؟

- كلا... كلا... واصل الطريق، ولكن أدخلنا لنرى العمارة ولو من السيارة.

- خاتون سنقف عشر دقائق فقط على كورنيش دجلة الخير نشرب الشاي وننطلق.

- مقترح وجيه، بارك الله فيك يا عكاب.

في طريق العمارة - البصرة؛ اشترى عكاب بطلب من زينب كمية من سمك البني وضعوه في حاوية من الفلين مع مسحوق الثلج.

فِي تمام الواحدة والربع وصلوا للبيت، فاستقبلهم الأولاد وقبَّلوا أمهم وأختهم، ووجدت زينب ابنتها نهى قد حضرت لهم الغداء على أحسن ما يكون، طلبت منها أن تضع القيمر والجبن في الثلاجة.

لاحظت نهى ان أختها سعاد عليها مسحة من السعادة والصحة ولبسها جميل، فسألتها إن كانت أحضرت لها هدايا، فهزت رأسها بالإيجاب.

جلسوا جميعًا حول السفرة ، وزينب مسرورة بعودتها لبيتها وتحكي لأولادها عن بغداد وجمال بغداد وعن الكرادة ومحلات الكرادة وعن بيت سعدة...

- والله كان المفروض نذهب إلى كربلاء والنجف نزور الحسين والعباس وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وأرضاهم، لكن المشكلة في الوقت ما أسعفنا ولكن الحمد لله حصلنا مرادنا، الله سهلها في وجوهنا، ألف حمد وشكر لك ربي.

ثم تكلم نهى:

- نهى ابنتي كيف حالكم، كيف حال أبيكِ؟ والله يا نهى يُعتمد عليكِ بارك الله فيكِ يا ابنتي بيضتي وجهي، كل شيء تمام التمام ، البيت نضيف والمطبخ مرتب وإخوانك ملابسهم نظيفة، والسؤال يا نهى: هل أبوكِ راضٍ عنكِ؟
- نعم ماما أنا في خدمته ، أحضِّر طعامه واغسل ملابسه وابعثها للمكوى وهو يحبني كثيرًا ودائمًا يقول: أنتِ شاطرة مثل أبيك.
- نهى، أبوكِ ينام في البيت؟
- طبعًا ماما، طول النهار عمو عكاب في سيارته واقف أمام البيت في خدمتنا، وعند المساء يأتي أبي فيذهب عكاب.
- نهى ابنتي عطري البيت بالبخور الهندي قبل مجيء بابا بدقائق، مفهوم؟

- نعم ماما.

تعد نهى وأمها زينب العشاء منتظرين قدوم أبو سعاد ولكنه يتأخر ، الساعة تجاوزت الثامنة ، ثم العاشرة ، والأطفال ناموا وأبو سعاد لم يصل.

سعاد في غرفتها ونهى مع أمها قلقتان:

- ابنتي خابري عمك سماري واسأليه عن بابا.

يرن جرس التليفون في بيت سماري...

- نعم عمو ، أنا نهى.

- أهلاً ابنتي العزيزة، خير يانهى؟

- عمو ، بابا عندك؟

- لا والله، اليوم لم نلتقي.

بعد نصف ساعة يأتي سماري وزوجته إلى بيت شياع...

- خير إن شاء الله يا أم سعاد؟

- والله ما نعرف أين شياع.

- بسيطة ، نخابر سيد صادق ، أين التليفون ؟... آلو سيد أنا سماري أين شياع؟

- على حد علمي في بيته الجديد مع عكاب.

- طيب فهمت.

يطلب سماري من زوجته البقاء مع أم سعاد ويذهب بالسيارة، ثم يعود بعد نصف ساعة...

- اطمئنوا، موجود في البيت الذي هيئه لراحته مع عكاب، تصبحون على خير.

في اليوم التالي لم يأتي شياع إلى الغداء، زينب على نار تريد أن تبشِّر زوجها أن سعاد بخير، لكنه الظاهر أنه مازال زعلان... بعد الغداء تذهب إلى المحل فتجده، فيشيح بوجهه عنها، فتقول له:

- لي كلام مهم معك.

- خير يا زينب؟

- كل خير.

- تفضلي اركبي السيارة ولنذهب إلى مكان هادئ.

- لماذا لا نذهب لبيتنا؟

- قلت نذهب لمكان هادئ.

يذهبان إلى كازينو العوائل في الكورنيش على ضفاف شط العرب ويجلسان...

- ما الشيء المهم يا زينب؟

- والله يا شياع لو أقدر أهلهل هنا لهلهلت لكنها محظورة، أبشرك أن سعاد ابنتنا باكر يعني بنت بنوت، أنا في بغداد

أخذتها إلى طبيبة أخصائية مشهورة وأكدت لي أن سعاد باكر.... عليك أن تفرح يا شياع.

أطرق شياع ونزلت الدموع من عينيه وتمتم: الحمد لله...

- ولكن قولي لي هل حكيتِ لسعدة؟

- طبعًا لا.

- وكيف تأكدتِ من ذلك؟

- الدكتورة الأخصائية أكدت لي ذلك، والله يا شياع والحسين وروح عمي عريب العُربة كلامي مضبوط.

- أعرف يا زينب أنكِ صادقة فأنتِ في حياتك كلها ما كذبتِ عليّ مرة واحدة.

- إذن طيب لماذا لا تفرح مثلي يا شياع؟

- شوفي زينب، أنا سابقًا أقسمت لأبي قبل وفاته أن أرعى المضيف وأرعى زراعة الأرض وأرعى عائلتنا الكبيرة ولا أفرِّق بين نسائه الثلاثة، ولم ألتزم بالقسم، تركت الأرض وتركت المضيف وابتعدت عن العائلة ولو أنهم راضون عني لأني أبعث لهم حاجاتهم وأتابعهم، وإخوتي هناك مهتمون بالأرض والمضيف... وفِي الحقيقة أني أقسمت أيمانًا غليظة هذه المرة بعد حادث سعاد؛ الذي أحمّلك كامل المسؤولية؛ أن لا أراها ولا يجمعني معكِ مكان واحد ولا فراش واحد، ولا أستطيع أن أحنث في قسمي هذا مهما

كلفني الأمر ، حتى ولو حياتي ، فأرجوكِ إن كان لي خاطر عندك أن لا تناقشي هذا الموضوع ، لأني تجاوزت موضوع طلاقك إكرامًا لأولادنا ولأنك بنت عمي وكان أبي رحمه الله يحبك وأوصاني خيرًا بكِ ، أنا يا زينب لا أثق بكِ وبتربيتكِ ، اليوم سعاد وغدًا نُهى والله الساتر ، بماذا تفسرين أن ابنتك بكركِ لا تعرفين عنها شيئًا وهي المفروض تسركِ في كل صغيرة وكبيرة ، ما هذا الغباء ؟ لا تستطيعين ملاحظة بنتكَ وتصرفاتها وهي ابنتكِ وصديقتكِ... المهم قراري أنتِ وسعاد وكل أولادكِ وبَنَاتك ترجعون إلى الجادل تعيشون في بيتنا هناك وسط اهلنا وعشيرتنا وبدون أي نقاش ، مفهوم؟

- نزلت دموع ساخنة من عيون زينب ، وبصوت مبحوح متهدج مصحوب بالخوف من المستقبل:

- شياع ، جئت فرحانة أبشرك ، ظلّمتها بوجهي ، الله يرضى عليك ويجازي الذي كان السبب.

- هل عرفتِ أن أم نور العاهرة قُتلت؟

- الله يبشرك بالخير ، إذن لماذا يا شياع تبهدلنا وتشتت شملنا وهؤلاء الكلاب خلصنا الله سبحانه منهم؟

- قلت لا تتناقشي في هذا الأمر ، لنرجع إلى البيت ويوم الجمعة جهزوا أموركم للعودة إلى المشرح.

أرادت زينب أن تقول شيئًا...

- لا تتعبي نفسك، انتهى الموضوع أقفلي عليه، وأنا أحذرك إذا كلفتِ سماري أو سيد صادق أو سعدة بالموضوع، أكرِّر : أحذرك، ولا تلومين إلا نفسك، وأي شيء تحتاجين من بيتك خذيه وسيقوم أخوتي هناك بالواجب على أحسن ما يكون.

- والمدارس ودوام سعاد بعد العطلة الصيفية؟

- كل شيء محسوب حسابه هنا مدرسة ودراسة وهناك مدرسة ودراسة ، نفس الكتب ونفس المناهج ، ولا تخافي على الشاطر وإذا رأيتِ نهى تحتاج تقوية في بعض دروس البكلوريا اطلبي من أخي سالم أن يكلّف لها مدرسين خصوصيين مقابل مبلغ من المال.

تعود زينب مكسورة القلب والخاطر ودمعتها في عينها إلى البيت ، وتتألم لأنها كذبت لأول مرة في حياتها على شياع وتحتاج إلى كفارة لأن الكذب أم الكبائر وهو ذنب كبير ، المشكلة ربما الله عاقبني لأني كذبت على شياع ابن عريب العُربة، ربما هؤلاء الناس يملكون كرامات لا علم لي بها... المهم ماذا أقول لسعاد، ماذا أقول للأولاد، كيف سنعيش في القرية وقد تعلمنا العيش في المدينة ؛ كهرباء وماء إسالة وتلفيزيون وتليفون وخير وطير، والكل يخدمون وأصبح اسمي سعاد خاتون، وسعاد اسمها ست سعاد، كنت أفكر أن تكون نهى طبيبة تدرس الطب في بغداد وتسكن مع سعدة، لكن شياع حقه إذا سعاد المؤدبة الخجولة تحت عيني وما عرفت أحميها،

فكيف أحمي نهى وأنا في البصرة وهي في بغداد، وسعدة مهما تكون أصبحت امرأة كبيرة لا تستطيع متابعتها، كل شيء بالقسمة والنصيب، أحسن شيء أجاري شياع إلى أن يهديه الله ويرجعنا، ماذا أعمل، هذا الله وهذي حكمته. بيت عمي عنيدين متى ما يقولون شيئًا لا يتراجعون عنه، ولكن بالسياسة تلين الأمور مع الوقت وكل قوي للزمان يلينُ.

أنهكها التفكير والسهر وقد طار النوم من عينها، من يوم غد عليها أن تبدأ العمل؛ ماذا تأخذ معها وماذا تُبقي هنا... والله ما أعرف، ربما نعود بعد عام بعد أن يشعر شياع أنه بحاجة لنا لأنه تعود أن يعيش وسط عائلة، ثم هو حقيقة يحبني ويحب أولاده وبناته، إنها مسألة كرامة بالنسبة لشياع الرجل انجرح بكرامته وهو تربى في الريف في بيت عريب العُربة على القيم والمثل العليا ونهل من حكمة أبيه الشيء الكثير، الله يجازيك يا سعاد على هذه المصيبة، طيب وأنا عقلي أين ذهب وأنا أرى سعاد دايخه بزمانه، سارحة طول الوقت تصَفن، وعندما تعود للبيت تدخل غرفتها ونادرًا ما تخرج بمعنى أن هناك شيء يشغلها عنا، معقول أنا بهذا الغباء، لا والله انها الطيبة الزائدة عن الحد كنوع من السذاجة وترك الحبل على الغارب وهذه النتيجة المُرة، طيب سعاد نقلها إلى المشرح سهل ولكن نقلها من المشرح للبصرة في غاية الصعوبة، والله أحسن شيء أجازة بدون راتب إلى أن يفرجها رب العالمين، أنا وسعاد

ضروري نزور الأئمة الأطهار في كربلاء والنجف وندفع كفارة ونقدّم نذر ، أنا كنت أنوي أوزع خبز العباس على الناس ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ؛ كما يقول الشاعر... ماذا أقول فيكِ سعاد لو ما صايرة كان أحسن ، هذه أقدار ربك يعطي من مكان ويأخذ من مكان على كل حال الحمد لله.

صباح اليوم التالي زينب تكلم ابنتها نهى:

- أنتِ أصبحتِ كبيرة وعاقلة ، ابنتي أبوك قرر إعادتنا إلى القرية في المشرح قرار نهائي لا رجعة فيه ، وعليكِ أن تساعديني في رزم كثير من الحاجات التي نحتاجها هناك ، حبيبتي لا تبتئسي ولا تناقشي أرجوك ومن أجل خاطري ، أبوك عنيد وألف سيف وما يتراجع عن قراره ، نأخذه بالهوادة ولا نعصي أمره إلى أن يُحنن الله قلبه علينا ونرجع.
- ماما العطلة باقي عليها شهر وتخلص، وبعدين؟
- ابنتي الله كريم، ربك الذي يرزق العصفور بالبراري قادر أن ينصف عباده.
- لكن هذا أبونا يحبنا وأنا يحبني ويسمع كلامي.
- ابنتي سبق السيف العذل ، لا فائدة ، لم يسمع توسلاتي ولم يرحم دموعي ليلة البارحة.
- طيب قولي لي ما هي المشكلة التي تستدعي كل هذا ؟ كنّا عايشين في أمان الله، ماما أصدقيني القول.

- أسكتي نهى، أرجوكِ اسكتي لا تهيجي المواجع، قلبي يؤلمني وروحي في مناخيري، نهى فوق ضيم الله أنت عليه، علينا بالصبر فهو مفتاح الفرج.

- هل سعاد تعرف؟

- والله ماما لا أدري، سعاد لا لها بالعير ولا بالنفير محتارة بروحها فقط، الله يجازيها.

- ماما، ماذا بها سعاد؟

- مدوخها الحب، الله يأخذ الحب وسنينه، عشنا عمرنا بالريف نكرب [١] من فجر الله حتى مغيب الشمس مثل ثور يجر محراثه لا اشتكينا ولا بكينا ولا حبينا، من أهل الله نشتغل ونأكل حالنا حال الأبقار، والله يا نهى الأبقار أحسن فقط يدرون الحليب ونحن نداريها ونخدمها، نحن النساء نعمل ونعطي حليب لأطفالنا ونخدم العائلة مثل السمك مأكول مذموم، الله كريم يا ابنتي، توكلي على الله دعينا نرى ماذا نأخذ وماذا نترك، نعتبرها سفرة مثل سفرة بغداد.

---

**(١) نكرب : نعمل بقوة ، ويقال كراب الأراضي حراثتها.**

( ١٤ )

تمر الأيام مسرعة وصباح يوم الجمعة تتحضر زينب وأولادها وبناتها للرحيل ، عكاب بسيارته البهبهان ومع لوري حمل واثنين من عمال المحل ، وخلال ساعة يتجهون للعمارة ومن ثم للمشرح.

يستقبلهم الجميع بفرح غامر ، وأم شياع تقبِّل الجميع وتقول : خير وبركة رحمة ونور عليك يا أبو شياع أحفادك كثروا وكبروا وخير وبركة وابنك شياع رجل أعمال، تاجر كبير وما مقصر معنا.

عند المساء زينب وسعاد ونهى تتفسحنَّ في القرية وتلاحظن جمال نهر الجادل ومنظر الهور الواسع المترامي الأطراف ، وتسمعن الغناء الريفي الموال وأبو الذية كلمات مؤثرة حزينة إنه الشجن العراقي الأصيل الذي يُقَلب المواجع ، ولاحظنَّ قلة مزارع الحنطة والشلب بسبب هجرة الفلاحين ، وقلة ضيوف مضيف عريب العُربة ، ولكن سالم شقيق شياع بادرهم : تعالوا معي نرى بستان النخيل والحمضيات والرمان والعنب والتين.

يدخلن البستان ما أروعه وما أجمل أنواع الفاكهة الناضجة فيه، ثم يأخذهن لمزرعة الخضروات ، الرقي والبطيخ والخيار والباذنجان والفلفل وشجر الكوسة والقرع والطماطم، حقًا مثلما

المدينة جميلة بشوارعها ومحلاتها وإنارتها ، الريف جميل بهوائه العليل ومياهه الرقراقة وفواكهه وخضرواته الطازجة ومناظره البديعة سبحان الخلاق.

ترتب أم شياع بيت شياع بمساعدة بناتها وضراتها اللواتي تحببنَ شياع مثل أولادهن وأكثر ، تجتمع العائلة في بيت شياع ويفرشون سفرة العشاء ، ويستأذن عكاب وسائق سيارة الحمل بالعودة لأن شياع يحتاجهم ، فيصر سالم على ضرورة تناول العشاء معهم بعدها يتوكلون على الله ، الجميع يشربون قهوة حمود من المضيف وهو يصبها لهم بطريقتهِ الفنية مع رنة الفناجين وعطر الهيل وطعمها المميز ، العشائر تستذوقها ويسمونها قهوة عريب العُربة المخدومة.

يمر على زينب وأولادها وبناتها أسبوعان وقد تعودوا على الحياة نوعًا ما والكل يحبهم ويقدرهم ويخدمهم ، وأحلى فسحة عندهم عندما حمود يأخذهم بزورق عريب العُربة للفسحة في الهور يشاهدون أنواع الطيور التي تملأ سماء الهور وسطح الماء ، والأسماك تقفز هنا وهناك ، والصيادون ينصبون الشباك للسمك والطيور ، الخير وفير والهواء منعش ورائحة القصب والبردي التي تعودت عليها سعاد أيام زمان... يشترون بعض السمك والطيور ، وعندما يعرف الصيادون أنهم عائلة شياع ابن عريب العُربة الفريضة الحكيم يرفضون استلام ثمن السمك والطيور.

يتفاجأ شياع في البصرة وهو يعمل في محله وصول سعدة زوجة شيخ زامل مع أخيها خالد وبرفقة شيخ خزعل شقيق شيخ زامل ، فيقفز من خلف المكتب ويرحب بهم ويطلب من عكاب أن يسبقه للبيت لتهيئة كافة الأمور : تفضلوا يا أهلاً وسهلاً حلت علينا البركة ، يرافقهم شياع إلى البيت ، تندهش سعدة لعدم وجود زينب وأولادها:

- خير شياع، أين العائلة؟
- عمتي، العائلة في المشرح زيارة للأهل.
- خير ما فعلت.

شياع يتصل بمطعم فاخر لجلب الغداء إلى البيت ويبعث عكاب إلى العشار شارع الوطني لجلب الغداء من مطعم الخيام المشهور. بعد ساعة ونصف تُنصب السفرة ويجلس الجميع للغداء بعدها ينتقلون لغرفة الضيوف ويبدأ شيخ خزعل بالكلام:

- شياع نحن اليوم ضيوفكم ، أنت ابننا العزيز وابن فريضتنا الحكيم، وإحنا باختصار قادمين من بغداد والعمارة خطابة، قررنا نخطب ابنتك الغالية سعاد إلى شقيق شيخ مزعل الصغير قيس ، مدرس لغة إنكليزية في إعدادية البصرة المركزية، وأكبر من سعاد بأربع سنين، ويملك بيت بالعشار في شارع الجزائر كامل مكمل ونريد موافقتك.

- شيخ على رأسي وعلى عيني ولكن قيس شايف سعاد ؟ سعاد شايفة قيس؟

ترد سعدة:

- نعم ، شافها وشافته في بيتنا في بغداد وأعجب فيها لأخلاقها وجمالها وحيائها.

- طيب سعاد موافقة؟

- سعاد موافقتها من موافقتك يا شياع.

- طيب زينب تعرف بالموضوع؟

- هناك تلميحات ولكن بدون كلام مباشر ، المهم عندنا موافقتك أنت يا شياع.

- طبعًا أنا موافق البنت بنتكم وأنتم اَهلها.

- مد يدك نقرأ الفاتحة.

- هذه يدي يا شيخ على بركة الله.

تهلهل سعدة ثلاث مرات ، ويقبِّل شيخ خزعل وخالد وقيس شياع ويشكرونه على هذه الهدية الثمينة.

سعدة تقول لشياع:

- حضر نفسك غدًا كلنا نتوجه إلى المشرح لأهلنا وعشيرتنا وكلنا بضيافة شيخ خزعل ، ومرة واحدة خطبة وزواج ودُخلة.

- شيخ خزعل توكلوا على الله نركب سياراتنا ونتوجه للمشرح أمامنا وقت كافي.

بعد ثلاث ساعات الجميع في المشرح في بيت شيخ خزعل ومضيف شيخ مزعل رحمه الله ، يصل خبر وصولهم إلى مضيف عريب العُربة ، فيركب سالم شقيق شياع وإخوته للذهاب إلى بيت شيخ خزعل إلى المضيف ، وتسمع زينب بوصول سعدة فتطلب من أخوة شياع أن ترافقهم مع سعاد ونهى إلى بيت شيخ خزعل...

وهكذا يلتم شمل الجميع ، تستقبل سعدة زينب وسعاد ونهى بالأحضان والقبلات.

يمتلأ مضيف وبيت شيخ زامل ويغص بالأهل والضيوف ، والزغاريد تصدح من كل مكان ، وسعدة وأخواتها وأهلهم وأبناء عشيرتهم فرحون مبتهجون.

يسمع شياع بوصول زينب فيخرج من المضيف ويطلب من ابنته نهى أن يقابل أمها فورًا في السيارة...

- اصعدي يا زينب... اسمعيني ، هذه مسألة حياة أو موت ، هل أنتِ متأكدة من ابنتك سعاد؟

- نعم شياع.

- زينب ، إن الذي أقدمنا عليه خطير ، لو كان ابن عمها لهان الأمر ، لكنه ابن شيخنا والفضيحة تصير بجلاجل.

- اطمئن يا شياع ، لقد أكدت لي الدكتورة أن سعاد باكر ، وأعدت السؤال عليها ثلاث مرات وفِي كل مرة تقول بنتك بنت بنوت اطمئني، ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا؟

- طيب زينب ، أنتِ تتحملين كامل المسؤولية ، والله كلكم أحرقكم بنار ونفط وأنا معكم إذا ظهر غير ذلك، أنا لا أسمح بالإهانة، أموت ولا يذلني أحد.

- اطمئن يا شياع ، ابنتك باكر... شياع أرجوك تكلف عكاب يأخذنا أنا وسعاد إلى سوق الصاغة في العمارة لشراء بعض الهدايا.

- حاضر ، عندك فلوس كافية؟

- عندي شياع، غدًا صباحًا توكلي على الله.

- حاضر يا نور عيني.

في الصباح تستأذن زينب من سعدة للذهاب للسوق فتقول لها سعدة:

- كل شيء جهزنا من بغداد: ذهب، ملابس، قماش، كل حاجات العروس وزيادة، اطمئني يا زينب واعتمدي على سعدة.

- مع هذا أحب أن أشتري بعض الهدايا.

- طيب على راحتك.

ابنتها نهى ترجو أمها أن ترافقهم، فتنهرها زينب بلطف.

عكاب وزينب وسعاد في سوق العمارة المسقف...

- عكاب أنت اجلس في المقهى ودعنا براحتنا.

تذهب زينب وسعاد إلى شارع الأطباء وتدخل صيدلية تديرها صيدلانية تشتري منها فرش أسنان ومعجون أسنان وبراسيتول وصبغ أضافر وأستون، وتسأل الصيدلانية:

- رجاءً هل توجد طبيبة اختصاص بأمراض النساء من أهل بغداد في هذا الشارع؟
- لماذا من بغداد؟
- أنا أحب ذلك، لأننا راجعنا طبيبة في المرة السابقة من بغداد وكان على يدها شفائي.
- هل أقدر أعرف المشكلة؟
- ابنتي دورتها الشهرية مخربطة وتصاحبها آلام بشكل مغص.
- على الناصية بعد خمسين خطوة لليمين توجد طبيبة شاطرة من بغداد اسمها "ليلى القاضي" ولكن عليها ازدحام، حاولوا مع الفراشة تسهل الأمور لأنها تقبل الرشوة.
- شكرًا جزيلاً.

تحضِّر سعاد دينارين بيدها وتدخل العيادة وتكلِّم الفراشة فتقول لها: تعالي يوم الخميس، فتعطيها خلسةً الدينارين، فتقول لها: تفضلي اجلسي.

بعد ربع ساعة تدخل زينب وسعاد عند الطبيبة...

- خير إن شاء الله، مَن المريض؟

- دكتوره ابنتي...

تتكلم زينب، سعاد فتنهرها الدكتوره:

- دعيها تتكلم، فهي المريض وليس أنتِ.

- سعاد تدعي أن عادتها غير مظبوطة، شهر تتقدم وشهر تتأخر، ويصاحب الدورة مغص في البطن.

- تفضلي نامي على سرير الفحص، طبعًا هناك كثير من الفتيات يشتكين من هذه الظاهرة التي تختفي تمامًا بعد الزواج، سأكتب لكِ حبوبًا مهدأة تأخذيها عند الحاجة مفهوم.

- نعم دكتورة مفهوم.

تتدخل زينب:

- دكتورة الله يخليكِ، ابنتي ليلة الجمعة زواجها ودخلتها وأحببت التأكد مئة بالمئة من سلامة بكارتها.

- أختي البنت تعرف ذلك المفروض تسألي ابنتك.

- دكتورة سألتها فأكدت لي بكارتها، افحصيها الله يرضى عنك ليطمئن قلبي.

- حاضر، حاضر يا ستي.

- ابنتك باكر مئة بالمئة.

- الله يبشرك بالخير دكتورة.

- رجاءً الأتعاب... خمسة دنانير أدفعيها للفراشة مبروك ومع السلامة.

زينب لا تسعها الأرض تكاد تطير من الفرح، وسعاد لا تنبس بكلمة لأنه تعرف الحقيقة المُرَّة...

- رأيتِ سعاد، أبوك يتهمني بالغباء، والله أنا أذكى منه.

يذهبان للصائغ حسن الحلي المشهور بأمانته في العمارة ولهذا أطلق عليه أهل العمارة لقب "الحلي" بمعنى يعمل بالحلال ولا يعرف الحرام... تستطرد زينب وتحكي لسعاد حكاية سمعتها من جدها عريب العُربة عن هذا الصائغ الذي كان لا يبيع بالدين أبدًا، وعندما سأله جدك لماذا، ردَّ عليه: يا حكيم ذهب وينباع بالدين، أنت توافق على ذلك؟ يا حكيم الذهب ما يتلف مثل الفواكه والخضروات إذا لم يباع اليوم سيباع غدًا، ثم عندما اعتذر من الزبون ربما يشتمني ولكن لمرة واحدة ولكن إذا أعطيته بالدين سوف كلما أطالبه بتسديد الدين يشتمني ولهذا أحسن أن اكتفي بشتيمة واحدة... والله هذه حكمة يا أبو ابراهيم، الظاهر ليس فقط أنا حكيم كما يقول الناس.

تشتري زينب خاتمًا لها، وخاتمًا وتراجي لسعاد، وسِوارًا لنهى وتراجي صباح الخير لسعدة، ويرجعون إلى المشرح وهي راضية مطمئنة وقد ارتفعت معنوياتها.

يوم الجمعة رجل الدين السيد وبحضور الجميع يعقد عقد الزواج بحضور الشهود وموافقة العروسين سعاد وقيس، وتبدأ الهلاهل والزفة وتقام الأفراح ، ويدخل قيس بسعاد شرعًا ، ويخرج ويسلّم المنديل الأبيض الملطخ بقطرات من الدم إلى أمه وسعدة، فيتعالى صوت الهلاهل، فيرتاح قلب شياع وزينب لكن تبقى هناك غصة في نفس سعاد لا تعرف كيف تتخلص منها ، ربما مع الوقت ، لأنها سمعت من جدها عريب العُربة ذات يوم في أمسيات الليالي ، إن الكذب يا أولادي من أكبر الكبائر وهو مرتبط بالزنى والسرقة ارتباطًا وثيقًا فمن يكذب يقدر ان يزني ويسرق لأن الكذب ُيسَهلُ عليه ذلك ، من لا يكذب لا يستطيع أن يسرق ولا يستطيع أن يزني، لانه عندما يسألونه من أين لك هذه البضاعة ماذا يقول فيضطر أن يكذب، وإذا قالوا له من تكون هذه المرأة التي معك ماذا يقول ؟ فيضطر أن يكذب ، وهكذا تجدون أن الكذب والزنى والسرقة حلقات مترابطة...

تذكر ذلك سعاد ولا تنساه، لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر... يا الله خلصني من هذا العذاب فأنا ِبحُكم جدي كاذبة وزانية وسارقة، الله أكبر ، ولكني غير ذلك لم أرتكب إثمًا في حياتي، وصمتي نوع من الدفاع عن نفسي لأني مظلومة، والله سبحانه يسامحني ، ومن حقي أن أسامح نفسي وأحميها قدر طاقتي ، ولا أحطم قلب أبي وأمي وأفضح نفسي وأهلي ، أنا

مقتنعة أن الله يسامحني كما سامحتني أمي ودافعت عني لأنها مقتنعة ببرائتي وبمظلوميتي... سعاد عليك أن ترتاحي ويرتاح ضميرك وقد مرَّت الأمور على خير وسلامة كما أراد الله ، الحمد والشكر لكَ يا ربي يا أرحم الراحمين.

يوم السبت تقام الولائم والأفراح في المشرح وفِي الجادل وتنحر الذبائح ، شيخ خزعل ينحر ثورًا ، وسالم شقيق شياع يذبح أربعة أكباش كبيرة ، وتنهال عليهم الهدايا من الفلاحين أبناء عشيرتهم ، ويزدهر مضيف شيخ مزعل بالمشرح ومضيف عريب العُربة بالجادل.

شياع وزينب سعيدان فرحان... أزمة وعدت الحمد لله والشكر ، أين كنا ، أين أصبحنا؟ يا ارحم الراحمين يا الله... شوفي زينب هؤلاء أهلنا نكبر بهم ويكبرون بنا.

- أخي سالم أريدك أن تبني بجانب مضيف أبينا مضيفًا آخر على هيئة قاعة كبيرة من الطابوق والإسمنت.
- أخي شياع أين الناس ، معظمهم هاجروا للمدينة ، ورواد المضيف أصبحوا يُعَدون على الأصابع.
- مع هذا يا سالم ابني المضيف الجديد إكرامًا لذكرى أبينا.
- حاضر يا أخي الكبير شياع، أنت تأمر وأنا أنفّذ.
- ممنون منك سالم.

في هذه الأثناء وشياع وأخوه سالم يخططان مكان المضيف الجديد ، وإذا بسيارة سماري وعائلته يصلون مبتهجين بزواج سعاد ، فتصبح الفرحة فرحتين... يسلم سماري على الجميع ويفرح بمشاهدة سعدة وشيخ خزعل وسالم وكل أصدقائه وأبناء عشيرته الكرام، سماري يأتي محملاً بالهدايا، يقول له شياع:

- كان في النية عودتنا اليوم مساءً للبصرة، فلماذا أتعبت نفسك يا أخي سماري وأتيت؟

- ماذا تقول ، سعاد ابنتي مثلما هيَّ ابنتك ، إذا ما نفرح بسعاد بمن نفرح يا شياع؟

ترد عليه أم شياع:

- الله يفرَّح قلبك.

يذهب الجميع إلى مضيف عريب العُربة يتسامرون ويتذكرون ذكريات الماضي وحلاوتها ومُرَّها ، ويترحمون على شيخ مزعل رحمه الله ، وعريب العُربة وحكمته وفراسته العادلة ومضيفه العامر ، ذكريات مفرحة مبكية، لكنها هذي الحياة فيها الفرح وفيها الحزن مثل الخير والشر ومثل النور والظلام ، الظاهر الدنيا ثنوية؛ يقول شياع، فيها الرجل والمرأة والشمس والقمر والسماء والأرض والمادي والروحاني وغير ذلك الكثير... يستطرد شياع بالحديث : نعم ، نعم ، كان أبي يقول حتى الإنسان نصفه مادي ونصفه الآخر روحي لأن الله جل

جلاله خلقه من جسد مادي من الصلصال ومن نفس من روحه سبحانه، والإنسان ذاته فيه الخير وفيه الشر... ربنا أدمها علينا نعمة فأنت الوهاب يا أرحم الراحمين امنحنا الخير العميم والمحبة والكرم والطيبة وارحم موتانا وأرضى عنا كلنا عبادك كلنا من آدم وآدم من تراب ، نحن جميعًا إن لم نكن أخوة في الدين فنحن أخوة في الإنسانية، ما أجمل الحياة هنا، الكل أخوة متحابون: مسلمون سُنة وشيعة، صابئة، مسيحيون، أزيديون.

في المساء يحضر سالم عددًا من الزوارق تكفي الجميع ، يركبون ويقيمون زفة جديدة إلى سعاد وقيس مصحوبة بالهلاهل والتصفيق الحار ، تصفيق أهل البصرة المعروف بأدائه المتميز ، وفِي أحد الزوارق هناك صوت شجي يغني أغاني الريف الجميلة مصحوبًا بالربابة والناي والمطبگ [١]. الصيادون في الهور يتفرجون ويحيون الجميع ويسلمون على شيخ خزعل ويهنئون شياع ابن حكيمهم الراحل... مع مغيب الشمس يعودون مستمتعين بمناظر الهور الخلابة وبخيراته الوفيرة وبطيبة الناس وحبهم لبعضهم وكأنهم عائلة واحدة.

في صباح اليوم التالي يعود الجميع؛ بعضهم إلى بغداد والبعض إلى العمارة، وعائلة شياع وسماري والعروسان ومعهم سعدة

---

**(١) المطبگ : ناي مزدوج يصنع من القصب له صوت شجي.**

وأخيها خالد وزوجته نوال إلى البصرة... بعد أن يفطر الجميع فطورًا مميزًا من القيمر والبيض واللبن والزبدة والعسل وخبز التمن أنواع من الرغفان والرصاع[١].

يصلون البصرة فيجدون سيد صادق قد هيأ مستلزمات الغداء وكان في استقبالهم مع فرقة الموسيقى الشعبية وفرقة الهيوا والخشابة عند جسر كرمة علي الدوار ، تستمر الاحتفالات طول النهار والليل فرحين مستبشرين ، بعدها يتوزعون بين بيت شياع وبيت سماري... وفي الصباح تذهب سعاد وزوجها قيس إلى بيتهما في شارع الجزائر الجميل وتستقر الأمور ويهدأ الجميع.

سعدة ونوال وخالد برفقة زينب ونهى يذهبون إلى العشار يتفرجون على المحلات في سوق المغائز وسوق الهنود وشارع الصيادلة ، ويعبرون نهر العشار إلى الشارع الوطني ويشاهدون أسد بابل ومحلات ومطاعم وملاهي شارع الوطني وكثرة الزوار من أهل الخليج ومن الأجانب القادمين للتجارة في البواخر العملاقة التي تنقل النفط والبضائع الراسية في شط العرب العريض ، وغابات النخيل على الجانب الاخر لها بداية ولا تعرف لها نهاية محملة بخيرات الله ، سعدة تقول:

---

**(١) الرغفان والرصاع : نوع من الخبز يصنع من دقيق الرز على الصاج ويؤكل وهو حار.**

- أنا أحب النخلة لأن فيها وجه الله سبحانه، فمن أي جهة تنظر لها متشابهة ، لا تختلف جهة عن أخرى أبدًا ، أنا أرى أن النخلة مثل البقرة كل شيء فيها مفيد.

ترد عليها زينب:

- والله صدقتِ يا سعدة.

وهنا تسألها نهى:

- جدة أنت متعلمة؟

- ماذا تقصدين يا نهى؟

- أقصد دخلتِ مدرسة؟

- لا والله، لكن الحياة أكبر مدرسة يا نهى وشيخ زامل رحمه الله أحسن معلم.

ترد زينب:

- يا نهى تعلمنا الحكمة من أهلنا ومن جدك عريب العُربة فريضة الناس وحكيمهم الذي يذكره الجميع بكل خير.

تشتري سعدة بهارات هندية من سوق الهنود ، خالد ونوال يعطسان من البهارات الحارة... ويمر تومان ذو الملامح الإفريقية وهو يعزف بأنفهِ بالناي أغاني أم كلثوم وكأنه فرقة موسيقية متكاملة، يبث الدعاية لأفلام سينما الرشيد والحمراء واليفطة الكبيرة للفيلم تسير خلفه يحملها اثنان، كان هذا نوع من أسلوب الدعاية والإعلام في ذاك الزمان الجميل.

## (١٥)

يلتقي سماري وشياع في العشار يتناقشان في أمور تطوير العمل والتجارة ، ويقرران شراء بيتين جميلين واسعين في منطقة الخورة أو شارع الجزائر ، ومحل جملة تجاري في العشار ، ومخازن في منطقة الداكير في العشار.

صديقهما الدلال عارف صاحب مكتب عقار التحرير في العشار يرتب لهما كافة الأمور ، وفعلاً يتم شراء بيتين متجاورين جميلين في شارع الجزائر الجميل الحديث ، كذلك يتم شراء محل تجاري كبير بجانب جامع الأمير على شط العشار ، ومخزنين أحدهما سقيفة كبيرة والآخر بناية بجانب السقيفة كمخزن للمواد المهمة الصغيرة الحجم والتي تحتاج درجة حرارة لا تزيد عن ٣٥ درجة مئوية للمحافظة عليها من التلف مثل الواشرات والوصلات البلاستيكية والمطاطية والأجزاء الدقيقة الغالية الثمن ، ويتفقان على ضرورة تطوير المحل مستقبلاً ليشمل أجهزة الإنارة بكافة تفاصيلها المهمة والتي لها علاقة بعمليات البناء الحديث ، وضرورة إيجاد مدير مخازن أمين ويجيد اللغة الإنكليزية لأغراض الاستيراد المباشر من الخارج وخاصة الصين مثلاً ، مع إمكانية الاستعانة بالأستاذ قيس زوج سعاد لكونه يجيد اللغة الإنكليزية وربما لا

يوافق لأن هناك احتمال ينظر لهم بعقلية ابن شيخ وهم كانوا فلاحين في العشيرة، ولكن شياع يقول لسماري:

- الدنيا تبدلت يا أخي سماري وكلنا أبناء آدم وحواء والدنيا أصبحت مصالح، رحم الله من أفاد واستفاد، وأرى أن قيس عقله كبير وأصبح ابن مدينة نفيده ويفيدنا، وبذلك يكون زيتنا بدقيقنا كما يقول أهل الموصل الكرام.

شياع يقول لسماري:

جميل جدًا بيوت متجاورة وتجارة مشتركة وأسماء نسائنا متشابهة أيضًا زينب.

فيرد عليه سماري:

- أحسن شيء زوجتك اسمها أم سعاد وزوجتي اسمها أم محمد.

فيعترض شياع:

- لا... زوجتي اسمها أم زيد... كل شيء بالعدالة والمساواة.
- ها شياع بعدك تعيش بعقلية الريف تقول تطورنا.
- لا سماري، الحق حق.
- خلاص مثل ما تحب يا أبو زيد الورد.

يعودان للبيت ويبشران سعدة وخالد ونوال ضيوفهم وعوائلهم فيفرح الجميع ويفرح معهم قيس وسعاد، ويعدهم قيس بالعمل معهما فهو أخوهما الصغير وابنهما، ويقول لهما:

- أنا مدرس، يوميًا عندي ثلاث حصص، أستطيع العمل معكما من الساعة الثانية عشر ظهرًا لغاية انتهاء العمل وبكل ممنونية.

يقول له شياع:

- يا ولدي قيس سيكون لكَ راتب بقدر راتبك الحكومي، فهل هذا يكفي أم تريد المزيد؟
- عمي، هذا كافي وزيادة الحمد لله رواتبنا أنا وسعاد كافية لمعيشتنا.
- ابني قيس هذا حقك وتعبك والله يقدرنا على خدمة كل أهلنا وناسنا... ولنبدأ العمل من الغد.
- عمي صبرك بالله، دعني أنظّم جدول دروسي.
- ابني على راحتك أنت صاحب المكتب... وأريد منك أن تبدأ بنقل سعاد ونهى وأولادنا وبناتنا إلى مدارسهم الجديدة في منطقة الجزائر بحكم علاقاتك الله يحفظك.
- عمي حاضر وبكل ممنونية.

سعدة وخالد ونوال يحبون العودة إلى بغداد غدًا صباحًا ولكن شياع يرجوهم إعطاءه مجال يومين فقط لشراء بعض الهدايا لهم، ولكن سعدة تقول:

- لا مجال للهدايا سيارة خالد صغيرة ولا تستوعب مزيدًا من الحاجات، أرجوك شياع نحن أهل وحبايب ومالنا واحد

وأصبحنا من فضل الله نسائب ، نحن تأخرنا كثيرًا وغدًا صباحًا نتوجه إلى بغداد، أرجوك يا شياع.

- عمة أنتِ تأمرين وكلامك مطاع، وفي عيد الأضحى عندما تعودين من الحج سالمة غانمة سنأتي لزيارتك، ومن الآن نقول لكِ حجًا مقبولاً وسعيًا مشكورًا.

- بارك الله فيك وفِي عائلتك يا ولدي شياع ، أوصيك خيرًا بزينب وسعاد ونهى وعمومًا بعائلتك يا شياع يا ابن الفريضة عريب العُربة، كما أوصيك يا ولدي أن تحافظ على علاقتك الطيبة مع أخيك سماري وأن لا تختلفا مهما كلّف الأمر ، ابني دائمًا اطردوا الطمع والجشع من قلوبكم إنها غواية الشيطان يا ولدي... اسمعوني جيدًا يا أولادي، تعرفون أن الله جلت قدرته لم يرزقني من شيخكم مزعل بالولد الصالح ولكنه تعالى عوضني خيرًا بكم فأنتم فعلاً أولادي الأعزاء وأولادكم أحفادي، أنا أمكم سعدة أنصحكم بتحكيم العقل دائمًا بينكم فقد سمعت من عريب العُربة هذه الحكاية الصغيرة المهمة أحكيها لكم لتستفادوا منها في عملكم وحياتكم :

يحكى يا أولادي الأعزاء أن بدويًا حسن الصورة مفتول العضلات مهيب القامة جاء مع ولده على بعيره من الجزيرة إلى سوق البصرة يريد بيع الزيت ويشتري بثمنه الشاي والسكر والقماش ، شاهدته إحدى الأميرات برفقة خادمتها عفراء فأعجبت به غاية الإعجاب وأرسلت عفراء تقنعه

بمرافقتها لقصرها في طرفِ المدينة ، عفراء تحاور البدوي وتقنعه بالذهاب معها وإلا طردتها مولاتها ، وبعد إلحاحها ورجائها وعنادها وافق البدوي على مرافقتها بعد أن طلب من ولده أخذ الحاجيات والبعير والعودة لأهله إذا لم يعد بعد الغداء والعودة لأهله قبل أن يدركه الليل...

جاء البدوي برفقة عفراء إلى القصر الذي تحيط به الحدائق الغناء وسواقي الماء الرقراق والخدم والحشم. ظهرت له الأميرة الباهرة الجمال تتغنج بدلال وتهيل وتميل، وتغدو القلب خاشعًا وذليل، بملابسها الشفافة الزاهية، تسير خلفها اثنتان من الخادمات الجميلات ترفعان أطراف ثوبها الطويل ، فسلمت وأحسنت السلام وتكلمت واختصرت الكلام وقالت : يا ابن الحلال أريد الزواج منك ولك حق الاختيار ، اعلم أن كل ذلك من أملاكي الكثيرة المنتشرة في أطراف المدينة وغير ذلك الشيء الكثير.

فكر البدوي وقرَّر الموافقة وقال: كما تشائين يا بنت الناس، وأنا رهن إشارتك ، حلال وجمال وخير عميم سأصبح في أحسن حال، وأفيد نفسي وأنفع العيال.

قالت له: تفضل ادخل القصر لنتفق على كل شيء، أنا لا أطلب منك شيئًا تقدمه لي؛ لا حال ولا مال، ولكن بعد الدخلة سأسألك سؤالاً وأطلب منك الجواب، وعليك أن يكون جوابك صحيحًا

دقيقًا ، اتفقنا يا رجل ؟... نعم اتفقنا يا ابنة الناس... إذن على بركة الله.

وفي صباح يوم الزواج سألته السؤال : أين عقلك يا رجل ؟... فأحرج غاية الإحراج ولم يكن لديه جواب ، قال : تُمهليني أبحث عن عقلي ، قالت : لك ما تريد ، وأعطته فرسًا وسيفًا ورمحًا ومتاعًا ومقدارًا جيدًا من المال ، وقالت له : توكل على الله.

سار الرجل يذرع أرض الله الواسعة يبحث عن عقله لعلَّه يجد الجواب الصحيح عند أحد الحكماء ، زار مدنًا كثيرة وأمصار عديدة حتى طال به المقام وأنهكه السؤال وتعب الطريق والسفر الطويل...

تمر الأيام والشهور والسنين ويضيع من كنز العمر ثمانية عشر عامًا ولم يجد الرجل الجواب ، فقرَّر العودةَ للديار لأنه خسر المعركة... وأثناء عودته والجو مكفهر والمطر غزير والريح تعصف ؛ دخل في زقاق مغلق فشاهد رجلاً بيده سيف يحاول الهجوم على بيت جاره الذي يقابله بقوة واقتدار ، ولكنه عندما وصل لباب البيت يريد اقتحامه عنوةً ؛ صاح بصوت جهوري : العقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج... ويكرِّرها... فقال البدوي وجدت عقلي... فاقترب من الرجل وسلم عليه وقال له : أنا ضيفك يا رجل ، فرد عليه : على الرحب والسعة ، ولكن أنا بأي حال ، قال له البدوي : استهدي بالله وأرجو أن يقدرني الله على

مساعدتك... فحكى للبدوي: يا مولاي أيها الضيف الكريم، نحن اثنان من الأخوة الأصدقاء الجيران تشاركنا في تجارة الحبوب بين البصرة ودول الخليج وبومباي في الهند ، أحدنا يسافر والثاني يدير العمل، وبالتناوب... وحصل أن سافرت أنا سعد وتركت أخي صديقي وشريكي سعيد لإدارة المتجر وكلفته خيرًا بزوجتي، وبعد أسبوعين عدت محملاً بالمواد، واتجهتُ إلى بيتي حال وصولي فوجدت زوجتي وقد لبست السواد وآثار الضرب على وجهها والدموع في عينيها ، فاستغربتُ الأمر وسألتها وأنا في حيرة: من فعل بكِ هذا يا امرأة ؟! ، فناحت وصاحت وقالت: إنه صديقك سعيد الذي راودني عن نفسي محاولاً اغتصابي ، وعندما مانعته ودافعت عن نفسي بقوة ضربني ضربًا مبرحًا بالخيزرانة حتى أدماني ، وهذه آثار الضرب على جسدي... فهجتُ ومجتُ وصعد الدم إلى رأسي أطلب الانتقام لشرفي المهان ، فاستللتُ سيفي كما ترى وخرجت لمهاجمة صديق عمري سعيد، وعندما أردتُ اقتحام بيت سعيد عنوةً، تذكرت وصية أبي الحكيم لي: اسمع يا سعيد، هذه الحكمة التي سمعها جدي من مضيف حكيم وفريضة عشائر الجنوب عريب العُربة أوصى بها أبي رحمه الله، وأبي أوصاني بها: العقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج، احفظها يا سعيد عني... فتراجعتُ تيمنًا بهذه الحكمة وتقديرًا لوصية أبي.

البدوي يشير على سعد: طالما أنت تؤمن بالعقل؛ فمن الحكمة الاستعانة بالجيران والمعارف في الشارع وبصديقك سعيد لمعرفة الحقيقة.

ضيَّفَ سعد ضيفهُ البدوي وقال: الصباح رباح.

وفي النهار طلب الجيران والمعارف، وحضر سعيد، وعرفوا الحقيقة، قال سعيد: كما أوصيتني يا أخي كل يوم أسأل زوجتك قبل الذهاب إلى المتجر، فقالت في اليوم العاشر لسفرك: أنا بحاجة إليك يا سعد، تفضل بالدخول... قلتُ لها: أنا على عجل قولي ما تريدين... قالت: تفضل ادخل لأمرٍ ضروري جدًا بيني وبينك... ما الأمر؟... قالت: تفضل ادخل أولاً... فدخلت بيت أخي وليتني ما دخلت يا سعد، لقد كشفت لي عن مفاتن جسدها طالبةً الوصال وأنها تعشقني، فقلت لها: استري نفسكِ أولاً، وأحضري لي تمرة... فَوضَعتُها بيدي يا سعد على الأرض، فحطمت عليها ذبابة وثانية وثالثة وعاشرة، ثم دودة وثانية وثالثة وعاشرة، حتى غطت الحشرات كامل التمرة، فقلت لها: انظري بدأتُ بواحدة والآن أصبح عدد الحشرات بالعشرات، هكذا المرأة يا بنت الناس تبدأ بواحد ثم يكونون عشرات، ومسكت لها الخيزرانة وأدبتها عوضًا عنك، والله على ما أقول شهيد... فشهد له الجيران وأكدوا صدق أقواله، فبكى سعد وحضن أخاه وصديقه الحميم سعيد، وطلق زوجته وقال لها: أنت طالق بالثلاثة، اذهبي إلى أهلكِ قاتلكِ الله.

عاد البدوي إلى مدينته وزوجته الأميرة وقد وجد عقله، فلمحته عفراء من سطح القصر من بعيد وأخبرت الأميرة، فقالت لها: عندما يدخل الدار ويسأل عني قولي له إنها في غرفتها نائمة... أمرًا وطاعةً مولاتي.

دخل البدوي غرفة الأميرة فوجدها نائمة في فراشها الوثير، وبجانبها رجل شاب جميل، فاستلَّ سيفه يريد قتلهما، لكنه تذكر الحكمة التي تعلمها بعد ثمانية عشر عامًا من البحث والجهد... فقال: العقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج... ففتحت الأميرة عينيها وقالت للشاب: قُمْ يا ولدي قبِّل يَد أبيك، فقد وجد عقله.

فيا أولادي الأعزاء: أوصيكم بالعقل والصبر... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومع السلامة.

• • • •

انتهت



# المؤلف في سطور

- الدكتور بشير عبد الواحد يوسف.
- وُلِد في مدينة العمارة (محافظة ميسان) في ١٢ - ٨ - ١٩٤٣م وانتقل مع أهله في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.

- حصل على الشهادات:

١- بكالوريوس هندسة طيران.

٢- ماجستير هندسة طيران.

٣- دكتوراه علوم سياسية.

٤- دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).

- صدر له:

١- بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.

٢- بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٣- صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٤- رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).

٥- حكايات صغيرة: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٦م

٦- الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٧م

٧- الموسوعة المندائية: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

٨- الحب الحقيقي: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

٩- رضاب: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

١٠- الفريضة: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٩م


- البريد الإلكتروني: bashir_1208:yahoo.com




**Tel:(+2) 01288890065**

**www.shams-group.ne**